محسِن حَميد

ترجمة : نادين نصرالله

رواية

مكتبة 421

مكتبة 421

محسن حميد

الهجرة غربًا

الكتاب: الهجرة غربًا (رواية)
تأليف: محسن حميد
ترجمة: نادين نصرالله
عدد الصفحات: 208 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-013-4
الطبعة الأولى: 2018

هذه ترجمة مرخصة لرواية

EXIT WEST BY MOHSIN HAMID
Copyright © 2017 by Mohsin Hamid

مكتبة ٢٠١٩٥٥

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

محسن حميد

مكتبة 421

الهجرة غربًا

رواية

ترجمة

نادين نصرالله

التنوير

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

إلى نفيد ونسيم

الفصل الأول

في مدينة تئن تحت عبء اللاجئين لكنها ما زالت تحتفظ ببعضٍ من حالة السلم، التقى شاب بشابّة في أحد الصفوف من غير أن يكلّمها. التقاها لأيّام وأيّام. كان اسمه سعيد وكان اسمها ناديا. هو ملتحٍ، إنما لم تكن لحية متروكة بالكامل، بل لحية يشذّبها بعناية. وهي تتّشح من أخمص قدميها حتى طرف عنقها بفستان أسود فضفاض. في تلك الفترة، كان الناس ما زالوا قادرين إلى حدّ ما على الاستمتاع بنعمة ارتداء ما يشاؤون، سواء لجهة الملبس أو لجهة غطاء الشعر، ضمن بعض القيود المحدّدة، لذا لم تكن هذه الخيارات بلا أيّ دلالة.

قد يبدو غريبًا في مدنٍ تترنّح على حافة الهاوية، أن يواصل الشباب ارتيادهم قاعات الدرس -وفي هذه الحالة كان صفًا مسائيًا حول الهوية المؤسّسيّة والعلامة التجاريّة- لكن هكذا هي الحال، في المدن كما في الحياة، نتسكّع مرة بينما نقوم بمهمّاتنا المعهودة ونموت مرة أخرى، فلا تضع نهايتنا الوشيكة الأبديّة حدًّا لبداياتنا ومراحلنا النصفيّة العابرة إلى أن يأذن الأجل بذلك.

لاحظ سعيد أن لناديا علامة حُسن على رقبتها، هي عبارة عن علامة بيضاوية الشكل سمراء تتحرّك أحيانًا، وليس كل الوقت، كلّما تحرّك نبضها.

ولم ينتظر سعيد طويلًا بعد أن لاحظ ذلك، فتكلّم مع ناديا للمرة الأولى. لم تكن مدينتهما قد اختبرت بعد أي قتال ملحوظ، بل بضع مناوشات وتفجير لسيارة مفخّخة تردّد صدى انفجارها في صدر الفرد كما الموجة التي تصدرها مكبّرات صوت ضخمة في الحفلات الموسيقيّة، بينما كان سعيد وناديا يوضّبان كتبهما ويخرجان من الصف.

استدار على السلالم وسألها:

«اسمعي، هل تودّين تناول القهوة»، وأضاف بعد هنيهة من الزمن في محاولة منه لجعل الوضع يبدو أقل جرأة نظرًا لزيّها المحافظ: «في الكافيتيريا».

حدّقت ناديا في عينيه مباشرة. وسألته: «ألا تؤدي فريضة العِشا؟»

فما كان من سعيد إلا أن استحضر أكثر ابتسامة محببة له مجيبًا: «لسوء الحظ، ليس دائمًا».

لكن تعابيرها لم تتغيّر. فواظب في مسعاه، متمسّكًا بابتسامته وملامح اليأس التي تعتري متسلّق جبال بائس تتصاعد: «أعتقد بأنها مسألة شخصيّة. لكلّ منّا طريقته الخاصّة. أو... طريقتها الخاصّة. ما من أحد كامل. وفي كلّ الأحوال..»..

قاطعته قائلة: «أنا لا أصلّي».وواصلت التحديق به بثبات. ثم أضافت: «لربما في مرّة أخرى».

راح يتأمّلها بينما تخرج إلى مرآب الطلّاب. وهناك، بدل أن تغطّي رأسها بوشاح أسود، كما كان يتوقّع، رآها تعتمر خوذة سوداء كانت مربوطة بدرّاجة ناريّة قديمة بقوّة حوالي 100 سي سي، فتسوّي حافة الخوذة لتحمي عينيها، وتمتطي درّاجتها، وتنطلق، متلاشية في قرقرة منتظمة داخل الغسق المتنامي.

في اليوم التالي، وجد سعيد نفسه وهو في عمله عاجزًا عن التوقّف عن التفكير بناديا. كان سعيد يعمل في وكالة متخصّصة بتركيب الإعلانات الخارجيّة، إذ تملك لوحات إعلانية في أرجاء المدينة كلّها، وتستأجر لوحات أخرى، وتبرم صفقات لمساحات إضافيّة مثل خطوط الباصّات والمدرّجات الرياضيّة وواجهات المباني الشاهقة.

كانت الوكالة تشغل طابقين في منزل تمّ تحويله ليضمّ أكثر من عشرة موظّفين، وكان سعيد من بين أصغرهم سنًا. لكن ربّ عمله أحبّه فكلّفه بتولّي أمر شركة صابون محلّية موضحًا أنه يجب إرسال عرض للشركة قبل الساعة الخامسة.

في الحالات الطبيعيّة، اعتاد سعيد أن يلجأ إلى القيام بأبحاث كثيرة على الشبكة الإلكترونية ليكون العرض على مقاس العميل قدر المستطاع. فغالبًا ما كرّر مديره على مسمعه «ليست بالقصّة إذا ما فشلت في شدّ الجمهور». ما يعني بالنسبة إلى سعيد أن

مهمته هي إقناع العميل أن شركته فهمت فعلًا فحوى أعماله، وتستطيع أن ترتدي عباءته وترى الأمور من وجهة نظره.

لكن اليوم، على الرغم من أهميّة المهمّة لا بل إن كلّ مهمة بالغة الأهمية- فالاقتصاد في ركود نتيجة الاضطرابات المتزايدة، وإحدى أولى الأكلاف التي يبدو أن العملاء يسعون إلى خفضها هي الإعلانات - إلّا أن سعيدًا عاجز عن التركيز. كان ينظر إلى شجرة ضخمة مورقة وغير مشذّبة ارتفعت من مساحة العشب الصغيرة التي تفترش خلفية مقرّ الشركة، فحجبت الشمس، وهو ما حوّل العشب الخلفي إلى أوساخ وخيوط عشب هزيلة، تتداخل فيها أعقاب سجائر الصباح، ذلك إن مديره منع الموظفين من التدخين في داخل المبنى. فرصد سعيد على قمّة هذه الشجرة صقرًا يبني عشًّا له. كان الصقر يعمل بلا كلل. أحيانًا راح يطوف على مستوى العين، كما لو أنّه يقف ثابتًا في مهبّ الريح، قبل أن ينحرف بأدنى حركة من جانحه أو حتى بطرفة ريش منه.

كان سعيد يفكّر بناديا ويراقب الصقر شاردًا عن عمله.

وعندما أحس بأن الوقت يداهمه، سارع إلى إعداد العرض، ناسخًا ما أمكنه من عروض أعدّها سابقًا. ومن بين الصور التي اختارها كانت صور قليلة منها تمتُّ إلى عالم الصابون بصلة. حمل نسخة من العروض إلى مديره وكبت توترًا تملّكه بينما يقدّم إليه الملف.

لكن مديره بدا مهمومًا فلم يلحظ أي عيب. بل دوّن بضع

ملاحظات طفيفة على المطبوعات وردّها إلى سعيد بابتسامة كئيبة قائلًا:

«أرسلها».

شيء ما في تعبيره جعل سعيد يشعر بالأسى عليه. وتمنى لو أنّه قدّم له عملًا أفضل.

وبينما قام عميل سعيد بتنزيل الرسالة الإلكترونية وقراءتها، هناك في أقصى أقاصي أستراليا خلدت سيدة شاحبة البشرة إلى النوم وحيدة في حيّ سوري هيلز في سيدني، فيما ذهب زوجها في رحلة عمل إلى بيرث. ارتدت السيدة قميصًا طويلًا، يعود إليه، وخاتم الزواج. وغطّت جسمها وساقها اليسرى بغطاء أكثر شحوبًا منها؛ أما ساقها اليمنى ووركها الأيمن فبقيا عاريين. وعلى كاحلها الأيمن، معلّقًا على طرف عقب أخيل، وشم أزرق لطائر أسطوريّ صغير.

منزلها مزوّد بجهاز إنذار، لكن لا يتم تشغيل الجهاز. فقد وضعه سكّان سابقون، آخرون اعتبروا هذا المكان بيتًا، قبل أن تصل الظاهرة المسماة إعادة التأهيل وتعمل على تأهيل هذا الحيّ ليصل إلى ما وصل إليه الآن، فلم تعد السيّدة النائمة تستخدم جهاز الإنذار إلا لمامًا، لا سيّما عندما يكون زوجها غائبًا. لكنّها نسيت أن تشغّله هذه الليلة، وكانت نافذة غرفة نومها التي ترتفع أربعة أمتار عن الأرض غير مقفلة. كانت مشقوقة ليس إلّا.

في درج الطاولة المجاورة للسرير علبة نصف ممتلئة من

حبوب منع الحمل، تناولتها للمرة الأخيرة منذ ثلاثة أشهر، عندما كانت لا تزال هي وزوجها يحرصان على ألّا ينجبا، بالإضافة إلى جوازات سفر ودفاتر شيكات وإيصالات وعملات معدنية ومفاتيح وزوج أصفاد وعيدان علكة مغلّفة بالورق.

باب خزانتها مفتوح. وفي غرفتها يتوهّج شاحن جهاز الكومبيوتر الخاص بها والمسيّر اللاسلكي، لكن الممرّ نحو الخزانة مظلم، بل أكثر ظلمة من الليل. مستطيل من الظلام الحالك -عقر الظلام. ومن بين هذا الظلام، انبعث رجل.

الرجل أيضًا كان داكن اللون، ببشرة داكنة وشعر صوفيّ داكن. راح يشقّ طريقه بصعوبة بالغة، فتمسك يداه جانبي الممر كما لو أنّه يدفع بنفسه عكس الجاذبيّة، أو يسبح عكس تيّار قويّ. كان عنقه يتبع رأسه، فتشتدّ أوتاره، وينتفخ صدره وقميصه نصف المفتوح المتعرّق الرمادي المائل إلى البنّي. فجأة، توقّف في خضمّ مجهوده. سرّح نظره حول الغرفة. نظر إلى المرأة النائمة، وإلى باب الغرفة المغلق، والنافذة المفتوحة. ثم استجمع قواه، مكافحًا كي يبلغ مراده، إنّما بصمت يائس، صمت رجل يناضل في زقاق، في ساعة متأخرة من الليل، ليحرّر نفسه من يدين تمسكان بفمه. لكن ما من يدين حول فم الرجل. تمنى ألّا يسمعه أحد ليس إلا.

وباندفاعة أخيرة وجد نفسه يرتجف وجسده يتهاوى على الأرض كمهرة رضيعة.

رقد بلا حراك، منهَكًا. حاول ألّا يلهث. ثم وقف مجدّدًا.

كوّر عينيه بشكل رهيب. نعم: بشكل رهيب. أو لربما ليس إلى هذا الحد من الرهبة. لربما بالكاد نظروا إليه، وإلى المرأة، وإلى السرير، وإلى الغرفة. ونظرًا للظروف التي نشأ فيها والتي نادرًا ما كانت غير محفوفة بالمخاطر، بات مدركًا لهشاشة جسده. وكان يعي جيّدًا كم يسهل تحويل المرء إلى أشلاء: التفجير الخاطئ أو الرصاصة الخاطئة، أو ضربة الشفرة الخاطئة أو انعطافة سيارة أو تغلغل جزيئية صغيرة في مصافحة بريئة أو مجرّد سعال. كان مدركًا أن الإنسان وحيدًا شبه لا شيء.

المرأة التي نامت، نامت وحيدة. وهو الواقف فوقها، وقف وحيدًا. باب الغرفة مغلق. والنافذة مفتوحة. خرج منها في برهة من الزمن، قافزًا بخفة إلى الشارع في الأسفل.

وبينما دارت مجريات هذا الحادث في أستراليا، كان سعيد يشتري الخبز الطازج للعشاء وهو في طريقه إلى المنزل. كان رجلًا راشدًا مستقلّ التفكير غير متزوج، يشغل وظيفة محترمة وقد حصّل تعليمًا جيّدًا. وكما هي الحال هذه الأيام في هذه المدينة مع غالبية الرجال الراشدين المستقلّي الفكر غير المتزوّجين الذين يشغلون وظائف محترمة وقد حصّلوا تعليمًا جيّدًا، كان يعيش مع أهله.

بدت والدة سعيد وكأنّها معلّمة مدرسة متسلّطة، وهي ما عليه فعلًا. أما والده، فنحا منحى الأستاذ الجامعي التائه قليلًا، وهو ما

هو عليه فعلًا -لكن براتب أدنى، إذ تخطّى سن التقاعد واضطر للبحث عن وظيفة كأستاذ زائر. لقد اختار كلّ من أهل سعيد، في حياة سابقة أفضل، مهنًا محترمة في بلاد خلصت إلى مصير سيئ على أيدي مهنيّيها المحترمين. فالأمن والأمان ما كانا ليتحقّقا إلا عبر مسارات أخرى مختلفة الاختلاف كلّه. وقد جاءت ولادة سعيد متأخرة، حتى إن والدته ظنّت أن الطبيب يسأل سؤالًا صفيقًا عندما سألها إن كانت تعتقد بأنها حامل.

كانت شقّتهم في مبنى اتّسم بالجمال في ما مضى، بواجهة مزخرفة على الرغم من انهيارها حاليًا، وتعود إلى الحقبة الاستعمارية، وتقع في جزء راقٍ من المدينة أضحى مكتظًّا وتجاريًّا. وقد انفصلت الشقة عن شقّة أكبر وتضمّنت ثلاث غرف: غرفتا نوم متواضعتين وغرفة ثالثة استخدموها غرفة جلوس وطعام ولمشاهدة التلفاز. وكانت الغرفة الثالثة متواضعة في حجمها، بنوافذ طويلة وشرفة ضيّقة قابلة للاستعمال، تطلّ على ممرّ وتفتح على شارع عريض في آخره نافورة جافّة تدفّقت مياهها في ما مضى وتلألأت تحت أشعة الشمس. كانت تلك المشاهد التي تستدعي دفع علاوة إضافيّة خلال فترات الازدهار الهادئة، تتحول إلى غير مرغوبة في أوقات النزاع، عندما تقع في خط نار الأسلحة الثقيلة والصواريخ بينما يتقدّم المقاتلون في هذا الجزء من المدينة: مشهديّة كما التحديق في ماسورة بندقية. يقول السماسرة: الموقع ثم الموقع ثم الموقع. ويجيب المؤرّخون الجغرافيا هي المصير.

وسرعان ما قضمت الحرب واجهة مبناهم كما لو أنها حثّت الزمان على تسريع خطاه، فتتخطى محصّلة يوم واحد خلاصة عقد من الزمن.

عندما التقى والدا سعيد للمرة الأولى، كانا في العمر نفسه الذي التقى فيه سعيد بناديا. وكان زواجهما زواج حبّ. زواج غريبين لم تدبّره عائلتهما، الأمر الذي إن لم يكن غير مسبوق في محيطهما، فهو لا يزال غير شائع.

التقيا في دار سينما، أثناء عرض فيلم حول أميرة ماكرة. تجسّست والدة سعيد على أبيه بينما يدخّن سيجارة وقد هالها الشبه بينه وبين البطل في الفيلم. غير أن وجه الشبه هذا لم يكن عرَضيًّا بشكل كامل: فعلى الرغم من خجله وولعه بالكتب، إلا أن والد سعيد قد عمد إلى تسوية هندامه ومظهره كما نجوم السينما والموسيقيين المشهورين آنذاك، كما فعل معظم رفاقه. لكن ضعف نظر والد سعيد بدا منسجمًا مع شخصيته، الأمر الذي منحه ذلك التعبير الحقيقي الحالم، مما حمل والدة سعيد على التفكير أنّه لا يبدو كالشخصية وحسب، بل يجسّدها فعليًا. وهكذا قرّرت أن تقوم بالخطوة الأولى.

وقفت أمام والد سعيد وشرعت تتكلّم بحماسة مع صديق لها متجاهلة هدفها. غير أنه تنبّه لها. واستمع إليها. واستجمع كل ما أوتي من قوّة ليتكلّم معها. وهكذا كان، كما يحلو لكل منهما أن يخبر بينما يتذكّران قصّة لقائهما بعد سنوات خلت.

كانت والدة سعيد ووالده من القراء الشغوفين، والمحاورين اللبقين، كلّ على طريقته الخاصة. وغالبًا ما كانا يلتقيان في بدايات علاقتهما في المكتبات. وبعد زواجهما، راحا يقضيان فترات بعد الظهر يقرآن معًا في المقاهي والمطاعم، أو على شرفتهما عندما يسمح لهما الطقس. هو كان يدخّن السجائر، أمّا هي، فتدّعي أنها لا تفعل، لكنها غالبًا ما تسحب السيجارة المنسية من بين أصابعه، عندما ينسى أن ينفض عنها الرماد، فتنفضها في المنفضة بعناية قبل أن تسحب منها نفسًا عميقًا أنيقًا وتعيدها إليه بكلّ كياسة.

دار السينما التي التقى فيها والدا سعيد اندثرت قبل وقت طويل من لقاء ابنهما بناديا، كذلك المكتبات ومعظم المقاهي والمطاعم التي أحبّاها. وهذا لا يعني أن دور السينما والمكتبات والمطاعم والمقاهي قد اختفت من المدينة، بل إن عددًا من تلك التي كانت في السابق لم يعد موجودًا. فالسينما التي يتذكّرانها بكثير من الحنين قد استبدلت بمركز تسوّق لأجهزة الكمبيوتر والإلكترونيات. وقد حمل هذا المبنى الاسم نفسه الذي حملته دار السينما التي سبقته: فكلاهما يعود للمالك نفسه، ودار السينما قد حازت حيّزًا من الشهرة فمنحت اسمها للمكان. لدى السير أمام المركز ورؤية ذلك الاسم القديم على شارة النيون الجديدة، تعود الذكرى أحيانًا بوالد سعيد وأحيانًا أخرى بوالدة سعيد فيبتسمان. أو يتذكّران، ويتوقّفان.

لم يمارس والدا سعيد الجنس حتى ليلة زفافهما. ولم تجد والدة سعيد الأمر مريحًا لكنها في الوقت عينه بدت الأكثر حرصًا، فأصرّت على تكرار الفعل مرّتين قبل انبلاج الفجر. وعلى مدى سنوات، ظل توازنهما قائمًا. كانت بشكل عام شرسة في السرير، وكان بشكل عام مُرضيًا. لربما يعود الأمر لواقع أنها لم تتمكن من الإنجاب إلى أن حملت بسعيد بعد مضي عقدين من الزمن، فافترضت أنها عاجزة عن الإنجاب، وبالتالي مارست الجنس بلا أي قيد أو شرط، من دون أن تفكّر بالعواقب أو بأعباء ومتطلبات تربية الأطفال. في المقابل، كان أسلوبه النموذجي، خلال النصف الأول من زواجه، في مواجهة تودّداتها الشائقة، قائمًا على أسلوب رجل يرحّب بالمفاجآت. اعتبرت شاربَيه مثيرين ووجدت الممارسة من الخلف شيّقة. أما هو، فوجدها شهوانيّة مشوّقة.

بعد ولادة سعيد، هبطت وتيرة ممارسة الجنس بين والديه بشكل ملحوظ، وواصلت تراجعها. فذاك الرحم شرع بالهبوط، وذلك الانتصاب بات صعبًا. خلال هذه المرحلة، راح والد سعيد يأخذ المبادرة، أو يدفع بنفسه، أكثر فأكثر، فيكون من يبادر إلى ممارسة الجنس. فتتساءل والدة سعيد أحيانًا ما إذا كان يقوم بذلك نتيجة رغبة حقيقيّة أو عادة أو مجرد محاولة للتقرّب. وقد سعت جهدها للتجاوب معه. لكنّه في نهاية المطاف أخذ يصطدم برفض جسده، أقلّه بالمستوى نفسه الذي يرفضه جسدها.

وفي آخر سنة تشاطرا فيها الحياة معًا، في السنة التي قد مضى منها أكثر مما تبقّى عندما التقى سعيد بناديا، لم يمارسا الجنس سوى ثلاث مرات. مارسا الجنس في سنة قدر ممارسته ليلة زفافهما. لكن والده ما انفك يحافظ على شاربيه، وبإصرار من والدته. ولم يغيّرا مرة سريرهما: لوحه الأماميّ يشبه الدرابزين، كما لو أنه ينتظر من يحكِم قبضته عليه.

في ما تسمّيه عائلة سعيد غرفة معيشة، جهاز تلسكوب أسود أنيق أُعطي لوالد سعيد من والده، وأعطاه والد سعيد بدوره لسعيد، لكن بما أن سعيد لا يزال يعيش في المنزل، فهذا يعني أن التلسكوب لا يزال قابعًا حيث كان دائمًا، على حامله الثلاثي القوائم في زاوية تحت مجسّم سفينة تبحر داخل زجاجة على بحر رفٍّ مثلّث.

لقد ازدادت سماء المدينة تلوّثًا مما شكّل عائقًا أمام تأمّل النجوم. لكن في ليالٍ ليلاء تلي يومًا ماطرًا، يُخرِج والد سعيد التلسكوب أحيانًا فتجتمع العائلة على شرفتها تحتسي الشاي الأخضر وتستمتع بالنسيم العليل، قبل أن يتناوب أفرادها على النظر إلى تلك الأشياء التي غالبًا ما يكون ضوؤها قد انبعث قبل أن يبصر أيّ من هؤلاء المشاهدين الثلاثة النور- ضوء من قرون مضت، وصل لتوّه كوكب الأرض. كان والد سعيد يطلق على ذلك عبارة السفر عبر الزمان.

في ليلة من الليالي، هي في الواقع الليلة التي تلت معاناته

لإعداد عرضه لشركة الصابون، أخذ سعيد يمسح الأفق بناظريه شارد الذهن. فيتلقّى في عدسة مجهره نوافذ وجدران وأسطح بنايات جامدة تارةً ومتحرّكة طورًا وتظهر بسرعة خياليّة.

أسرّ والد سعيد لوالدته قائلًا: «أعتقد بأنه ينظر إلى الفتيات الشابّات».

وردّت والدته قائلة: «أحسن تصرّفك يا سعيد. حسنًا، إنه ابنك».

مكتبة

«لم أحتج يومًا إلى تلسكوب».

«هذا صحيح، تفضّل العمل على المدى المنظور». هزّ سعيد رأسه ورفعه إلى الأعلى. وقال: «أرى المرّيخ».وقد رآه فعلًا. ثاني أقرب الكواكب، بمعالمه غير الواضحة، ولون الغروب بعد انكشاح عاصفة غبار.

استقام سعيد في وقفته وحمل هاتفه، موجّهًا الكاميرا إلى السماوات، فيما يبحث عن تطبيق يشير إلى أسماء الأجرام السماوية التي يجهلها. فكان المرّيخ الذي أظهره أكثر تفصيلًا، مع أنّه كان بالطبع مرّيخًا من لحظة أخرى، مرّيخًا من زمن مضى، ثبّته معِدّ التطبيق في ذاكرة التطبيق.

تناهت إلى مسامع عائلة سعيد أصوات إطلاق نار من أسلحة رشّاشة، ومفرقعات لم تكن أصواتها قويّة لكنها وصلت إليهم بكلّ وضوح. جلسوا معًا لفترة إضافية. ثم اقترحت والدة سعيد أن يدخلوا إلى الداخل.

عندما نجح سعيد ونادیا في احتساء القهوة معًا في الكافيتيريا، وقد حصل ذلك في الأسبوع التالي، بعد الحصة التالية مباشرة، سألها سعيد عن فستانها الأسود المحافظ الذي يخفي عمليًّا كلّ شيء.

قال مخفضًا صوته: «إن كنت لا تصلّين، لماذا ترتدينه؟».

كانا يجلسان إلى طاولة لشخصين بالقرب من نافذة تطلّ على حركة المرور الكثيفة في الشارع في الأسفل. وقد استقر هاتفاهما على الطاولة بينهما والشاشتان مقلوبتان إلى الأسفل، كما أسلحة الخارجين عن القانون في جلسة مفاوضات.

ابتسمت. وارتشفت رشفة. وتكلّمت وقد غطّى فنجانها النصف الأدنى من وجهها.

وردّت قائلة: «حتى لا يعبث معي الرجال».

الفصل الثاني

عندما كانت ناديا صغيرة، شكّل الفنّ حصتها المفضّلة، مع أن الفن لم يكن يُدرّس سوى مرة واحدة في الأسبوع. وما كانت تعتبر نفسها موهوبة كفنانة، فقد ارتادت مدرسة تشدّد على الحفظ عن ظهر قلب، الأمر الذي وجدت صعوبة بالغة في اتباعه، لذلك أمضت جلّ وقتها تخربش في هوامش كتبها ودفاترها، محدودبة تخبّئ رسوماتها وعوالمها عن أعين أساتذتها. فلو أمسكوا بها، لتلقّت توبيخًا أو لربما تلقت صفعة على مؤخّرة رأسها في بعض الأحيان.

غير أن الفن في منزل طفولة ناديا قد تمحور حول آيات دينيّة وصور للمقامات المقدسة، مؤطرة ومعلّقة على الحائط. وإذا كانت والدة ناديا وشقيقتها هادئتين، إلا أنّ والدهما كان يسعى لأن يكون هادئًا على اعتبار أن الهدوء فضيلة، لكنه يصل درجة الغليان سريعًا، وغالبًا عندما تكون ناديا معنيّة بالسبب. فأسئلتها المتواصلة وعدم احترامها المتزايد لكل ما يمت للإيمان بصلة قد وضعه في حال من الانزعاج والخوف. وقد غابت مظاهر العنف

الجسدي في منزل ناديا، لتحلّ الأعمال الخيرية محلّها. لكن عندما أعلنت ناديا بعد إنهائها دراستها الجامعيّة أنّها تنوي العيش بمفردها، هي المرأة غير المتزوجة، فقد شكّل ذلك صدمة مريعة لعائلتها ومفاجأة شخصيّة لها نفسها إذ لم تخطّط لقول ذلك. تضمّنت القطيعة كلمات نابية من كل حدب وصوب، من والدها ومن والدتها، وحتى من شقيقتها. ولربما أقساها كان من ناديا نفسها، مما حمل ناديا وعائلتها على اعتبارها مذّاك الحين بلا عائلة، وهو ما ندموا عليه، هم الأربعة كلهم، لسائر أيامهم. لكنّ أيًّا منهم لم يقدِم على أيّ خطوة تصلح الوضع، نتيجة عنادهم من جهة، وقلّة حيلتهم من جهة أخرى، وسرعة جنوح مدينتهم إلى الهاوية قبل أن يدركوا أنهم فوّتوا فرصتهم.

في بعض الأحيان، جاءت تجارب ناديا في الأشهر الأولى لعيشها بمفردها كامرأة وحيدة موازية لمدى الكراهية والخطورة اللتين حذّرتها منهما عائلتها. بل إن هذا النوع من المشاعر تخطى حتى ما حُذّرَت منه. لكنها أصرّت على الصمود وهكذا كان. كانت تعمل في شركة ضمان، وقد استأجرت غرفة على سطح منزل أرملة، ووضعت فيها جهاز تسجيل ومجموعة صغيرة من الأسطوانات القديمة، وأحاطت نفسها بدائرة من المعارف من بين أحرار هذه المدينة، كما تواصلت مع طبيبة نسائية كتومة لا تسارع إلى إصدار الأحكام. تعلّمت ماذا ترتدي كي تحمي نفسها، وكيف تتعامل مع رجال عدائيين، ومع الشرطة، ومع

رجال أسوأ من الشرطة، وفي مواجهة أي مستجدات قررت أن تثق دائمًا وأبدًا بغريزتها لتفادي أي وضع تجد نفسها فيه، أو للنفاد سريعًا من مشكلة.

لكن بينما تجلس وراء مكتبها في شركة الضمان، بعد ظهر أحد الأيام، تنجز معاملات تجديد بوالص تأمين للسيارات عبر الهاتف، تلقّت رسالة نصّية من سعيد يسألها إذا كانت تحب أن يلتقيا، وما زالت منحنية بظهرها تعمل، كما في أيام جلوسها على مقاعد الدراسة، وما زالت تخربش أيضًا، كما في هوامش الأوراق المطبوعة أمامها.

التقيا في مطعم صينيّ اختارته ناديا، في وقت لا توجد صفوف دراسيّة تلك الليلة. العائلة التي تولّت إدارة المكان، بعد وصولها إلى المدينة غداة الحرب العالميّة الثانية، وتوارثت المصلحة لثلاثة أجيال خلت، باعت أملاكها مؤخّرًا وهاجرت إلى كندا. لكن الأسعار بقيت مقبولة، ولم تتراجع جودة الطعام بعد. تعبق صالة الطعام بجوّ مظلم تفوح منه رائحة الأفيون، على عكس المطاعم الصينيّة الأخرى في المدينة. أمّا الإنارة فتبدو وكأنها بواسطة فوانيس ورقية تملأها الشموع، لكنّها في الواقع بلاستيكيّة تضيئها لمبات إلكترونية على شكل شعل متوهّجة.

وصلت ناديا أولًا وراحت تتأمّل سعيد يدخل ويسير نحو طاولتها. يرتدي وجهه، كما في غالب الأحيان، تعبيرًا مرحًا يتجلّى عبر عينيه المتّقدتين، من غير أن تشوبه أيّ سخريّة، كما لو

أنّه يرى الجانب المرح من الأمور، وهذا ما أراحها بدوره وجعلها تقرّر أن تتقرّب منه. قاومت ابتسامة سبقتها، وهي على يقين أنه لن يطول الأمر قبل أن يبتسم، وقد ابتسم فعلًا قبل أن يصل إلى الطاولة، فبادرته بابتسامة.

قال مشيرًا إلى ما حوله: «أحبّ المكان. فيه بعض من الغموض. كأن يمكننا أن نكون في أي مكان. حسنًا ليس أي مكان، لكن ليس هنا».

«هل سبق وسافرت؟».

أشار برأسه نافيًا، وأضاف: «أودّ ذلك».

«أنا أيضًا».

«إلى أين تذهبين؟».

تأمّلته للحظات قبل أن تجيب: «كوبا».

«كوبا؟ لماذا؟».

«لا أدري. تجعلني أفكر بالموسيقى والمباني القديمة الجميلة والبحر».

«يبدو الأمر مثاليًا».

«ماذا عنك؟ ماذا تختار؟ مكان واحد».

«تشيلي».

«إذًا كلانا يريد الذهاب إلى أميركا اللاتينيّة.

عاجلها بابتسامة عريضة. «صحراء أتاكاما. الهواء جافّ

جدًّا، والطقس صافٍ جدًّا، وعدد السكّان قليل جدًّا، والضوء شبه معدوم. يمكنك الاستلقاء على ظهرك وتأمّل درب التبّانة. النجوم كلّها كدفقة حليب في السماء. وترينها تتحرّك: بطيئة. لأن الأرض تتحرّك. فتشعرين وكأنك ممدّدة على كرة غزل عملاقة في الفضاء».

تأملت ناديا ملامح سعيد. رأتها في تلك اللحظة مخضّبة بالذهول، فبدا غلامًا على الرغم من لحيته الخفيفة. يدهشها كنوع غريب من الرجال. نوع غريب وجذّاب من الرجال.

حضر النادل ليأخذ طلبهما. لا ناديا ولا سعيد اختارا مشروبًا غازيًّا مفضّلَيْن الشاي والماء، وعندما وصل طعامهما لم يستعمل أيّ منهما عيدان الأكل، إذ يفضّل كلاهما أكثر الثقة بمهاراتهما باستخدام الشوكة، أقلّه وهما تحت المجهر. وعلى الرغم من لحظات الحرج الأولى، أو بالأحرى الخجل المقنّع، إلا أنّهما وجدا سهولة في التكلّم واحدهما مع الآخر، وهو ما يبعث الراحة في أول لقاء عاطفي فعليّ. تكلّما بهدوء، وهما يحاذران عدم إثارة انتباه الزبائن الآخرين. وسرعان ما مرّ الوقت وانتهى عشاؤهما.

ثم واجها مشكلة تعترض شباب المدينة كلّهم الذين يريدون أن يبقوا برفقة بعضهم البعض لما بعد ساعة محدّدة. فخلال النهار، تكثر المنتزهات والأحرام الجامعيّة والمطاعم والمقاهي. لكن في الليل، بعد العشاء، تندر الأماكن التي يمكن أن يتواجد فيها

المرء إلا إذا امتلك منزلًا حيث تكون هذه الأمور آمنة ومسموحة أو امتلك سيارة. ولعائلة سعيد سيّارة، لكنّها في التصليح، لذا اضطر إلى القدوم بواسطة درّاجته. ولناديا منزل، لكنّه يصعب لأكثر من سبب أن تستقبل فيه رجلًا.

ومع ذلك، قرّرت أن تدعوه إلى منزلها.

بدا سعيد متفاجئًا وفي غاية الحماسة عندما اقترحت عليه أن يرافقها.

شرحت قائلة: «لن يحصل أي شيء. لكن أريد أن أوضح الأمور. عندما أقول إنه يمكنك أن ترافقني، فأنا لا أعني أني أريد أن تطبق يديك حولي».

«كلا. بالطبع لا».

وازدادت ملامح سعيد تعبيرًا عن صدمته.

وأومأت ناديا برأسها. لكن بينما رقّت نظراتها، لم تبادر بأيّ ابتسامة.

احتلّ اللاجئون عددًا من الأماكن المفتوحة في المدينة، ناصبين خيامهم في الأحزمة الخضر بين الشوارع وبالقرب من أسوار المنازل، وبائتين في العراء على أرصفة الطرقات وجنبات الشوارع. بدا البعض منهم يحاول إعادة استحداث نمط حياة طبيعية، كما لو أنه من الطبيعي أن تقيم عائلة من أربعة أفراد تحت صفائح بلاستيكيّة مدعّمة بجذوع أشجار وبضعة أحجار من الطوب. وكان الجدد منهم يحدّقون بالمدينة بشيء من الغضب،

أو الدهشة أو التوسّل أو الحسد. ومنهم من لم يحرّك ساكنًا: لربما كانوا مذهولين أو يرتاحون. ولربما ينازعون. وكان يتعيّن على سعيد ونادیا أن يتنبّها عند كل منعطف كي لا يدوسا على ذراع أو ساق ممدّدة.

وبينما تسلّلت على درّاجتها الناريّة باتجاه المنزل، يلحق بها سعيد على درّاجته الهوائيّة، كانت ناديا تتساءل ما إذا كانت صائبة في قرارها. لكنّها لم تغيّر رأيها.

اعترضهما حاجزان في طريقهما، أحدهما حاجزللشرطة، والآخر، جديد، يديره جنود. لم تزعجهما الشرطة. لكن الجنود أوقفوا الجميع. أجبروا ناديا على نزع خوذتها، معتقدين ربما أنها رجل متنكّر بزيّ امرأة، لكن عندما رأوا العكس، أشاروا لها بالمرور.

استأجرت ناديا الجزء الأعلى من مبنى ضيّق يعود لأرملة يعيش أبناؤها وأحفادها كلّهم في الخارج. لقد كان هذا المبنى في ما مضى منزلًا واحدًا، لكنّه شيّد بمحاذاة سوق توسّعت لتتخطّاه وتحيط به. احتفظت الأرملة بالطابق الأوسط لنفسها، وحوّلت الطابق السفلي إلى محلّ أجّرته لبائع أنظمة طاقة كهربائية احتياطية تخزَّن في بطاريات سيارات، وأعطت الطابق العلويّ لناديا، التي تخطّت شكوك الأرملة الأولى التي تؤمن بأنها أرملة أيضًا، وزوجها ضابط مشاة صغير قُتل في معركة. وهي مزاعم، أقلّ ما يقال فيها إنّها غير صحيحة ولا أساس لها من الصحّة.

تألّفت شقّة ناديا من غرفة استديو ومطبخ صغير وحمّام بالغ الصغر حتى ليستحيل الاستحمام فيه من دون نثر الماء في كل مكان. لكنّ الشقّة تفتح على سطيحة تشرف من علوها على السوق وتغرق، عندما لا تغيب الكهرباء، بتوهّج رقراق لمّاع تصدره شارة نيون متحرّكة ضخمة ترتفع فوق مركز خدمة بيع مشروبات غازيّة خالية من السعرات الحراريّة.

طلبت ناديا من سعيد أن ينتظر على مسافة قريبة، في زقاق مظلم عند زاوية الشارع، بينما تفتح بوابة حديد وتدخل المبنى بمفردها. وما إن وصلت إلى الأعلى حتى رمت باللحاف على سريرها ودفعت بالملابس المتّسخة إلى داخل الخزانة. ثم ملأت كيس تسوّق صغير، وتوقّفت للحظة ناظرة هنا وهناك، قبل أن ترمي بالكيس من النافذة.

استقرّ الكيس بالقرب من سعيد محدثًا ارتطامًا مكتومًا. فتحه فوجد مفاتيح، بالإضافة إلى أحد فساتينها السود الذي سارع إلى ارتدائه فوق ملابسه، واضعًا الغطاء على رأسه، ثم اقترب من الباب الأماميّ بخفّة ذكّرتها بممثّل مسرحيّ يؤدي دور سارق، ففتحه وظهر أمام شقّتها بعد أقل من دقيقة، فأشارت إليه بالجلوس.

اختارت ناديا تسجيلًا، هو عبارة عن ألبوم تؤدّيه امرأة راحلة كانت في ما مضى أيقونة أسلوب عرف في بلادها الأميركية باسم موسيقى السول أو الروح، ليستحضر صوتها الحيّ الآتي

من الماضي البعيد حضورًا ثالثًا في غرفة لا تضمّ إلا اثنين، ثم سألت سعيد إن كان يود تدخين سيجارة حشيشة، فأجابها إيجابًا، عارضًا عليها أن يلفّها بنفسه.

بينما كانت ناديا وسعيد ينفثان دخان سيجارتهما الأولى معًا، أخذ شابّ، في مقاطعة شينجوكو في طوكيو، حيث حلّ منتصف الليل وطوى صفحته، ما يعني تقنيًّا أن اليوم التالي قد بدأ، يجترع كأسًا لم يسدّد ثمنه ومع ذلك استحقّه. فكأس الويسكي مصدره إيرلندا، ذلك المكان الذي لم يزره قطّ، لكنّه يكنّ له محبّة لطيفة، لربما لأن إيرلندا تشبه شيكوكو[1] العالم الموازي، فلا تختلف من حيث الشكل، بل ترتمي على جانب المحيط من جزيرة كبرى في طرف اليابسة الأوراسية الشاسعة، أو لربما أحبه نتيجة مشاهدة فيلم عصابات إيرلندي ذهب لمشاهدته مرارًا وتكرارًا في شبابه وما زال متأثرًا به.

ارتدى الرجل بزة وقميصًا أبيض مجعّدًا، لذا يصعب رؤية ما إذا كان قد وضع أي وشم على ذراعيه. بدا ممتلئ الجسم، لكن عندما يقف على قدميه، يتحوّل أنيقًا في حركاته. عيناه متّزنتان رصينتان على الرغم من احتسائه المشروب، لكنهما ليستا بالعينين اللتين تجذبان عيون الآخرين. بل تقفز النظرات بعيدًا عن نظراته، كما لو أنها بين قطيع كلاب وسط الغابة، حيث يحدّد منطق التراتبيّة وفق نوعية العنف المحتمل.

---

(1) شيكوكو: هي أصغر الجزر الرئيسية الأربع في اليابان وأقلها سكانًا.

أشعل سيجارة خارج الحانة. كان الشارع مضاءً بفعل اللافتات المشعة لكنّه هادئ نسبيًّا. مرّ أمامه زوج موظفين ثملين على مسافة آمنة، ثم مضيفة نادٍ يعمل على مدار الساعة، فتمشي بخطى سريعة محدّقة بالرصيف. انخفضت السحب فوق طوكيو، عاكسة نورًا أحمر ثقيلًا على المدينة، لكن نسيمًا عليلًا يهبّ الآن، وقد شعر به على بشرته وفي شعره. إحساس بمياه مالحة وقشعريرة خفيفة. احتفظ بالدخان في رئتيه ثم أطلقه بطيئًا. فتلاشى رويدًا رويدًا في الهواء.

تفاجأ عندما سمع ضجيجًا وراءه، لأن الزقاق خلفه كان مسدودًا وفارغًا عندما خرج. تفحّصه جيّدًا جريًا على عادته. تفحّصه سريعًا، لكن بعناية، قبل أن يدير ظهره. وهناك وجد فتاتين فيليبينيّتين في أواخر مراهقتهما، لم تبلغا العشرين من عمريهما على الأرجح، تقفان أمام باب مهجور في خلفية الحانة، وهو باب لطالما أبقي مقفلًا، لكنّه مفتوح بطريقة ما في هذه اللحظة، بوابة ظلام دامس، كما لو أن أيّ نور قد غاب من الداخل، كما لو أنّ أي نور لا يستطيع أن يقتحم الداخل. كانت الفتاتان ترتديان ملابس غريبة، ملابس بالغة الرقة، استوائية، ليست من نوع الملابس التي تراها عادة على أجساد الفيليبينيّات في طوكيو، أو على أي أحد آخر في هذه الفترة من السنة. إحداهما قد أنهت لتوّها زجاجة جعة ورمتها. فتدحرجت محدثة قعقعة عالية ومختفية بسرعة.

لم تنظرا إليه. بل شعر بأنهما لا تدريان ما تفعلان به. تكلّمتا

بنبرة مكتومة وهما تمرّان أمامه، متفوّهتين بكلمات غير مفهومة، لكنّه أدرك أنها لغة التاغلوغيّة. بدتا منفعلتين: لربما متحمّستين، ولربما خائفتين، ولربما الشعورين معًا. في كل الأحوال، فكّر الرجل أنه يصعب تحديد الأمر مع النساء. كانتا في ملعبه. ليست المرة الأولى التي يرى فيها هذا الأسبوع مجموعة من الفيليبينيّات اللواتي يبدين غريبات في منطقته. يكره الفيليبينيّين. لديهم مكانهم لكن عليهم معرفة مكانهم. كان ثمة صبيّ نصف فيليبينيّ في صف مدرسته الثانوية غالبًا ما كان يضربه، وقد كانت الضربة في إحدى المرّات بالغة العنف، حتى لكادت تتسبّب بطرده لو قُدّر لأحدهم أن يفصح عن الفاعل.

أخذ يراقب الفتاتين تمشيان. ويفكّر.

تسلل داخل ممرّ وراءهما، يحرّك بإصبعه المعدن الذي في جيبه وهو يسير.

في زمن العنف، ثمة دائمًا تلك التجربة الأولى أو الحميمة التي تطالنا، فتصيب أقرباء لنا فتحوّل على حين غرّة ذلك الكابوس إلى واقع أشدّ إيلامًا بواقعيته. بالنسبة لناديا، كان ذاك الشخص هو ابن عمّها، رجل يتمتّع بتصميم لافت ويتحلّى بعقل راجح، رجل لم يهتم يومًا، حتى في صغره، للّعب. رجل بدا وكأنه لا يضحك إلا لمامًا. رجل فاز بالميداليات في المدرسة وقرّر أن يصبح طبيبًا. رجل نجح في الهجرة إلى بلاد الغربة. عاد الرجل مرّة في السنة لزيارة أهله، فأطاح به، مع خمسة وثمانين آخرين، انفجار شاحنة

أرداهم أشلاء. كانت أكبر هذه الأشلاء في حالة قريب ناديا عبارة عن الرأس وثلثي ذراع.

لم تعلم ناديا بمقتل ابن عمّها في الوقت المناسب لتحضر الدفن، ولم تزر أقرباءها لا لنقص في العاطفة منها بل لأنها أرادت أن تتجنّب أن تكون مصدرًا لأي إزعاج، وخطّطت لزيارة الضريح بمفردها. وعندما اتّصل بها سعيد ولاحظ صمتها ألحّ على معرفة سبب ذلك الصمت فأخبرته. فعرض أن يرافقها، وأصرّ من غير أن يصرّ، الأمر الذي اعتبرته مصدر راحة لها ووافقت. ذهبا معًا، في صبيحة اليوم التالي، وشاهدا تلّة من التراب الطازج المزين بالزهور يغطي ما تبقّى من ابن عمّها. وقف سعيد وأخذ يصلّي. لم تقدّم ناديا أي صلاة، ولم تنثر أي ورود، بل جثت ووضعت يدها على التلّة الرطبة بفعل زيارة قام بها أحدهم وسقا القبر، وأطبقت عينيها لفترة طويلة، طويلة، بينما تناهى إلى مسامعهما صوت طائرة نفاثة حطّت في مطار قريب ثم تلاشى الصوت.

تناولا الفطور في مقهى. طلبا القهوة وبعض الخبز مع الزبدة والمربى، ثم شرعت تتكلّم، لكن ليس عن ابن عمّها، وسعيد حاضر بكلّ ما أوتي من تركيز، يجلس مستريحًا في ذلك الصباح غير الاعتيادي، بينما لا تتكلّم هي عمّا يفترض أن يكون موضوع الكلام، بل شعرت بالأمور تتغيّر بينهما، فتصبح أكثر متانة على نحو ما. بعد الفطور توجّهت ناديا إلى شركة الضمان التي تعمل فيها، وعملت على بوالص السيارات إلى أن حان موعد الغداء.

كانت نبرتها ثابتة ورسميّة. وحدهم المتّصلون الذين نادرًا ما تتعامل معهم تفوّهوا بكلمات غير مناسبة. أو سألوها عن رقم هاتفها الخاص. وبطبيعة الحال، لم تكن لتعطيه لأحد منهم.

واعدت ناديا موسيقيًّا لفترة من الزمن. التقيا في حفل موسيقي جرى تحت الأرض، كان عبارة عن حفل موسيقى جاز صاخبة، مع حوالي خمسين أو ستين شخصًا مكدّسين في مقر استديو التسجيل العازل للصوت الذي بات متخصّصًا في الأعمال الصوتية المتلفزة - على اعتبار أن عالم الموسيقى المحليّة، لأسباب تتعلق بالأمن والقرصنة، تعاني ضائقة صعبة. كانت ترتدي، كما اعتادت في تلك الفترة، فستانها الأسود الذي ينتهي عند عنقها، وكان يرتدي، كما اعتاد في تلك الفترة، بلوزة بيضاء صغيرة المقاس تلتصق بصدره الهزيل ومعدته. كانت تنظر إليه، وراح يحوم حولها، ثم ذهبا إلى منزله تلك الليلة حيث تخلّت عن وزر عذريّتها ببعض الارتباك إنما من غير كثير إثارة.

قلّما تكلّما على الهاتف. والتقيا بشكل متقطّع. وقد اشتبهت بأنه يعاشر العديد من النساء الأخريات. لكنّها لم تودّ التحقّق من ذلك. بل راق لها ارتياحه مع جسده، وسلوكه الشهواني تجاه جسدها، وإيقاع ملمسه ومداعبته، وجماله. جماله الحيواني، والرغبة التي يثيرها فيها. خالته يهتمّ بها قليلًا ليس إلا، لكنها كانت في ذلك مخطئة، إذ إن الموسيقيّ كان متيّمًا بها، وليس غير متعلّق بها كما تفترض، لكن كبرياءه، وخوفه أيضًا، وأسلوبه

أيضًا، كل ذلك حال دون مطالبتها بأكثر مما تقدّم له. فبات يبغض نفسه لذلك، لكن ليس كثيرًا، ولو أنه بعد لقائهما الأخير لم ينفك يفكّر بها حتى لحظة مماته، التي صادفت بعد مرور أشهر قليلة، مع أنّ أيًّا منهما لم يكن في ذلك الحين على علم بذلك.

اعتقدت ناديا في البداية أن لا حاجة للوداع، وأن الوداع ينطوي على نوع من الافتراض، ثم شعرت بقليل من الحزن، فأدركت أنها تحتاج للحظة الوداع تلك، ليس له، إذ تشكّ في أنه يبالي، بل لنفسها. وبما أنه ليس ثمّة ما يتبادلانه عبر الهاتف ولأن الرسائل النصّية بدت غير شخصيّة، قرّرت أن يكون الوداع شخصيًّا. أن يكون في الخارج، في مكان عام، وليس في شقّته التي تعمّها الفوضى حيث تتراجع ثقتها بنفسها. لكنّها عندما قالت له ذلك، دعاها أن تصعد، «لمرّة واحدة أخيرة،» وكانت نوت أن تقول لا، لكنها في الواقع قالت نعم وكان الجنس بينهما ملتهبًا، كان جنس الوداع فجاء لافتًا في اتّقاده على نحو لافت.

لاحقًا كانت تتساءل أحيانًا ماذا حلّ به، لكنّها لم تعرف قط.

في المساء التالي، اكتظّت سماء المدينة بطائرات الهليكوبتر كما الطيور يفاجئها إطلاق الرصاص أو ضربة فأس أسفل شجرتها. ارتفعت، فرادى وأزواج، وحامت حول المدينة في الغسق الأحمر، بينما تنسحب خيوط الشمس إلى ما وراء الأفق، فأخذ صرير محرّكاتها يتردّد عبر النوافذ وفي الأزقة، كما لو أنه يضغط بالهواء تحتها، كما لو أنّ كلًّا منها قد ارتفع فوق عمود لا

مرئي، أسطوانة تنفّس غير مرئية. كانت تلك المنحوتات الغريبة المتحرّكة التي تشبه الصقور، بعضها صغير مزوّد بمظلّات رديفة فيها طيّار ومدفعيّ على ارتفاعات مختلفة، وبعضها ضخم يعجّ بالجنود تقطع وتقطع عبر السماوات.

أخذ سعيد يراقبها مع أهله من على شرفتهم. وأخذت ناديا تراقبها من على سطحها، وحيدة.

من خلال باب مفتوح، نظر جنديّ شاب إلى مدينتهم في الأسفل، مدينة لم يألفها كثيرًا، إذ نشأ في القرية وقد هاله ثقل حجمها، وضخامة أبراجها وغنى حدائقها. باتت الجلبة من حوله لا تحتمل، فاهتز بطنه بينما ينحرف.

الفصل الثالث

في تلك الفترة، لم تكن ناديا وسعيد ليتخلّيا عن هاتفيهما. في هاتفيهما هوائيات، وهذه الهوائيات تستكشف عالمًا لا مرئيًا، كما لو أنّ في الأمر سحرًا، عالمًا ما انفك يحيط بهما، من غير أن يحصر نفسه بمكان، فينقلهما إلى أماكن بعيدة وقريبة، إلى أماكن لم تكن يومًا ولن تكون. ظلّت خطوط الهواتف لعقود خلت بعد الاستقلال في مدينتهما أمرًا نادرًا، فطالت لائحة الانتظار للحصول على توصيلة، ويتم استقبال الفرق التي تتولّى تركيب الأسلاك النحاسية وتسليم الهواتف الثقيلة بالترحاب والتبجيل كما الأبطال وتُكافأ بالرشاوى. لكن الآن، تلوح قضبان الهوائيات في سماء المدينة، حرّة متفلّتة، وتصل أعداد الهواتف إلى الملايين، وبات الحصول على رقم لا يستدعي أكثر من دقائق، مقابل حفنة من المال.

قاوم سعيد جزئيًا ذاك الاجتذاب الذي مارسه هاتفه عليه. فقد وجد الهوائي بالغ القوة، والسحر الذي يبثّه فائق الإبهار، كما لو أنّه أمام مأدبة طعام لا بداية ولا نهاية لها، فيحشو نفسه، ويحشو

نفسه، حتى يشعر بالدوار والإعياء، لذا قام بإلغاء جميع التطبيقات أو إخفائها أو حظرها، باستثناء قلّة قليلة منها. فبات بإمكان هاتفه أن يجري اتصالات. بإمكان هاتفه أن يرسل الرسائل النصّية. بإمكان هاتفه أن يلتقط الصور، ويحدّد مواقع الأجرام السماوية، ويحوّل المدينة إلى خارطة بينما يقود السيّارة. لكن هذا كلّ ما في الأمر. في الأغلب. باستثناء تلك الساعة التي يقضيها كلّ مساء يتصفّح فيها الشبكة عبر الهاتف، ويختفي في غياهب الإنترنت. لكنّ هذه الساعة محكمة التنظيم، وعندما تنتهي، يطلق جهاز التنبيه إنذاره، على شكل رنين لطيف طنّان، كما لو أنه ناطق بلسان أسطورة آتية من غياهب كوكب خياليّ أزرق لمّاع فيغلق المتصفّح إلكترونيًّا ولا يتصفّح الشبكة عبر هاتفه حتى اليوم التالي.

ومع هذا، كان ذلك الهاتف الذي قُيّدت مهماته، ذلك الهاتف الذي انتزع منه الكثير من إمكانيّاته، قد سمح له بالولوج إلى عالم ناديا المنفصل، بوتيرة متردّدة في البداية، ثم أكثر فأكثر، في أيّ وقت من النهار أو الليل، وسمح له بالبدء بدخول أفكارها، بينما تجفّف نفسها بعد الاستحمام، وبينما تتناول عشاء خفيفًا بمفردها، وبينما تجلس وراء مكتبها في العمل، وبينما تجلس على المرحاض تفرغ مثانتها. جعلها تضحك، مرّة واحدة، ومرّة أخرى، وأخرى. جعل بشرتها تحترق ونفَسَها يتقطّع مع بدايات النشوة المفاجئة، فأصبح موجودًا من غير أن يكون موجودًا،

والأمر سيّان بالنسبة إليه. وسرعان ما نشأ إيقاع بينهما، فندر أن تمرّ ساعات يقظة قليلة من دون أن يجري أي اتصال بينهما، ووجدا نفسيهما في أيام غرامهما الأولى متعطّشَين لبعضهما، يلمس واحدهما الآخر، لكن من دون أي تماسّ جسديّ، ومن دون أي انعتاق. بدأ كلّ منهما يشعر بالآخر يتغلغل فيه، لكنهما لم يصلا حتى القبلة الأولى بعد.

على عكس سعيد، لم ترَ ناديا أيّ داعٍ لوضع قيود لهاتفها. بل كان يسلّيها في الأمسيات الطوال، كما هو الأمر مع عدد لا يحصى من الشباب الذين يجدون أنفسهم عالقين في منازلهم، فراحت تبحر في عوالمه في ليالٍ ساكنة وحيدة. راحت تشاهد قنابل تتساقط، ونساء تتريّض، ورجال يضاجعون، وسحُبًا تتجمّع، وأمواج ترتطم بالرمال كألسنة أجساد فانية موقّتة تلعق وتلعق، وألسنة كوكب يؤول هو أيضًا إلى زوال. مكتبة

وكثيرًا ما استكشفت ناديا وسائل التواصل الاجتماعي، مع أنها نادرًا ما خلّفت وراءها ما يدلّ على مرورها، متفادية أن تنشر الكثير عن نفسها، مستخدمة أسماء مستخدمين غير واضحة ورمزية، في ما يشبه في العالم الافتراضي فساتينها السود. لكنّ ناديا طلبت عبر وسائل التواصل الاجتماعي مكوّن الفطر المهلوس الذي تناولته مع سعيد في أوّل ليلة تقرّبا جسديًّا من بعضهما البعض، إذ إن الفطر كان متوفّرًا عبر الشبكة الالكترونية لطلبات التوصيل في مدينتهم هذه الأيام. فالشرطة وأجهزة مكافحة المخدّرات كانت

تركّز على مواد أخرى أكثر توفّرًا في السوق، وبالنسبة للجاهلين بالأمور، فإن حبّات الفطر، أكانت للهلوَسة أو للأكل، تبدو كلّها متشابهة، وحميدة بما يكفي، وهو أمر استغلّه رجل محلّي في مقتبل العمر يعقد شعره إلى الخلف ويدير مصلحة صغيرة تقدّم مكوّنات نادرة للطهاة والذوّاقة، لكنّه حظي بالأتباع والإعجاب في العالم الإفتراضي من الشباب تحديدًا.

وما هي إلا أشهر قليلة حتى قُطع رأس هذا الرجل الذي يعقد شعره إلى الخلف. جُزَّ من مؤخرّة العنق أوّلًا بسكين مسنّن لمضاعفة الألم، وظلّ جسده المبتور الرأس معلّقًا بواسطة أحد كاحليه على عامود كهربائي حيث تتأرجح ساقاه إلى أن تفسّخ رباط الحذاء الذي استخدمه الجلّاد بدل الحبل وتهاوى من غير أن يجرؤ أحدهم على إنزاله قبل ذلك.

ولكن حتى الآن، بات العالم الافتراضيّ الحرّ في المدينة يتعارض بقوّة مع الحياة اليومية التي يحياها معظم السكان، ولا سيّما الشباب منهم، وتحديدًا الشابات، والأهم من ذلك الأطفال الذين خلدوا للنوم بلا مأكل، لكنهم ما زالوا قادرين عبر بضع شاشات صغيرة أن يروا أناسًا في دول أخرى تعدّ الطعام وتستهلكه وحتى تتحضّر لمعارك حول الأكل في المآدب والأعياد بكثير من البذخ الذي تجفل له الأذهان بمجرّد التفكير به.

على الانترنت جنس وأمن وافتتان وأكثر وأكثر. في الشارع، قبل يوم واحد من وصول فطر ناديا، وقف رجل ضخم عند الإشارة

الحمراء في تقاطع مقفر في وقت متأخر من الليل، واستدار إلى ناديا وسلّم عليها، وعندما تجاهلته، بدأ يشتمها قائلًا إنّ العاهرة وحدها تقود درّاجة ناريّة، ألا تدري أنه من الفحش أن تقوم امرأة بركوب الدرّاجة هكذا، وهل سبق لها أن رأت امرأة أخرى تقوم بذلك، من تخال نفسها. راح يشتمها بشراسة بالغة حتى خالته سينقضّ عليها، بينما هي وقفت مكانها، تنظر إليه وقد خفضت مقدّمة خوذتها، وقلبها يخفق خفقانًا، لكنها أمسكت قبضتها على الدواسة والقابض، مستعدّة لأن تنطلق مسرعة بعيدًا، أسرع مما يمكنه اللحاق بها على درّاجته الهوائيّة المتعَبة، إلى أن هزّ رأسه وقاد بعيدًا عنها وهو يصرخ. كان يصرخ صراخًا مخنوقًا بصوتٍ قد يكون تعبيرًا عن الغضب أو الألم على حدّ سواء.

وصل الفطر صبيحة اليوم التالي إلى مكتب ناديا، من دون أن يدري عامل البريد أن ما تحتويه العلبة التي وقّعت ناديا على استلامها وسدّدت ثمنها غير ما كتب على اللائحة بأنها من مستلزمات الطعام. وفي الوقت عينه تقريبًا، كانت مجموعة من المسلّحين تستولي على بورصة المدينة. أمضت ناديا وزملاؤها معظم النهار متسمّرين أمام شاشة التلفزيون بالقرب من برّاد المياه في الطابق الذي يعملون فيه، لكن بحلول بعد الظهر، انتهى الموضوع، إذ قرّر الجيش أن أي خطر قد يلحق بالرهائن هو أقل من الخطر الذي قد يلحق بالأمن القومي، إذا ما سُمِح لهذا المشهد الذي يجتذب الإعلام ويضعضع الثقة بالأوضاع، فتم

اجتياح المبنى بقوى ضاربة، وقُضي على المسلّحين، وقُدّرت الأرقام الأوّلية لعدد القتلى من العمّال بأقل من مئة.

تبادلت ناديا مع سعيد الرسائل طوال اليوم، وفكّرا في البداية بإلغاء موعدهما الذي خطّطا له هذا المساء، وكانت ثاني دعوة لسعيد إلى منزلها. لكن لم يتم الإعلان عن أي منع للتجوّل، الأمر الذي فاجأ الجميع، إذ لربما تأمل السلطات الإيحاء بأن الأمور تحت السيطرة التامة، لذا لا داعي لأي منع تجوّل. عندها وجد كلّ من ناديا وسعيد نفسيهما مضطربَيْن يتوقان لصحبة أحدهما الآخر، لذا قرّرا المضيّ قدمًا بمخطّطهما واللقاء.

تم إصلاح سيارة عائلة سعيد، وهكذا استخدمها ليصل إلى عنوان ناديا بدل ركوب درّاجته الهوائية، مما جعله، كونه داخل آلية مقفلة، يشعر أنه أقلّ انكشافًا. لكن بينما كان يجد طريقه بين زحمة السير، خدشت مرآته الجانبيّة باب سيّارة رباعية الدفع سوداء فاخرة لمّاعة، تعود على الأرجح لأحد الصناعيّين أو عظماء الشأن، وتتخطّى قيمتها قيمة منزل، فأعدّ سعيد نفسه لتلقّي بعض الصراخ، ولربما الضرب، لكنّ الحارس الذي خرج من المقعد الأمامي الجانبي للسيارة الرباعية، وبندقيّته الهجومية موجهة إلى الأعلى، بالكاد تمكّن من النظر إلى سعيد، نظرة هادئة لكن شرسة، قبل أن يشير إليه لكي يعود إلى الزحام، وتنطلق السيارة. يبدو أن مالكها كان على عجلة من أمره ولا يريد إضاعة الوقت تلك الليلة.

ركن سعيد السيارة في الزاوية المقابلة لمبنى ناديا وأرسل لها رسالة معلنًا وصوله، ووقف ينتظر ارتطام الكيس البلاستيكي المتهاوي، قبل أن يتدثّر بالفستان الذي يحتويه الكيس، ويستعجل الدخول صعودًا، كما فعل في السابق. هذه المرّة أتى حاملًا معه أكياس أحضرها بنفسه، أكياس فيها دجاج ولحم مشوي وخبز طازج. أخذت ناديا الطعام منه ووضعته في الفرن حتى يحافظ على حرارته- لكن على الرغم من ذلك، كان العشاء قد تحوّل باردًا عندما تناولاه أخيرًا، مستلقيَيْن باسترخاء حتى الفجر.

قادت ناديا سعيد إلى الخارج. كانت قد وضعت وسادة طويلة، غطاؤها منسوج كما البساط على أرضية السطيحة، وجلست على هذه الوسادة وظهرها مسنود إلى الدرابزين، مشيرة إلى سعيد أن يقوم بالمثل. وعندما جلس شعر بالجانب الخارجي من فخذها يلتصق صلبًا بفخذه، وشعرت بالجانب الخارجي من فخذه يلتصق صلبًا بفخذها.

قالت: «ألن تنزع هذا؟»

وقد قصدت بسؤالها الفستان الأسود الذي نسي أنه يرتديه، فنظر إلى نفسه ثم إليها، وابتسم مجيبًا: «اخلعيه أنت أوّلًا».

فضحكت قائلة: «معًا، إذًا.

وقال: «معًا».

وقفا نازعين معًا فستانيهما، مواجهين أحدهما الآخر، وكلاهما يرتدي الجينز والبلوزة، إذ ثمة لذعة قارسة في الجو هذا المساء.

كانت بلوزته بنية اللون فضفاضة، أما بلوزتها فلونها بيج تلتصق بجسدها كبشرة ثانية ناعمة. حاول بكلّ ما أوتي من نبل ألّا تجنح عينه فتجتاح جسدها، لذا ركّز ناظريه على ناظريها، لكن بطبيعة الحال، وكلّنا يعي جيّدًا ما يحصل في مثل هذه الظروف، لم يكن أكيدًا ما إذا نجح بالأمر، إذ إن نظرة المرء ليست بالضرورة ظاهرة يسيطر عليها وعي الإنسان على نحوٍ كامل.

جلسا مجدّدًا ووضعت قبضتها على فخذه، وراحة يدها موجّهة إلى الأعلى وفتحتها.

سألته: «هل سبق أن تذوّقت فطرًا مخدّرًا؟»

تبادلا أطراف الكلام بكلّ هدوء تحت سماء ملبّدة بالغيوم، يسترقان النظر أحيانًا إلى ثلم يحدثه القمر أو إلى الظلمة، وأحيانًا أخرى إلى تموّجات أنوار المدينة الرماديّة وتمخّضاتها. كان الأمر في البداية طبيعيًّا للغاية، فتساءل سعيد ما إذا كانت ربما تمازحه، أو ما إذا كانت قد تعرّضت للغش وبيع لها نوعًا مغشوشًا. وسرعان ما خلص إلى أنّه بفعل بعض من شذوذ بيولوجي أو نفسي، كان بكل بساطة ولسوء حظّه مقاومًا لكلّ ما يفترض بالفطر أن يقوم به.

وهكذا، لم يكن مستعدًّا لذاك الشعور بالرهبة الذي اعتراه. والعجب الذي حمله على النظر إلى بشرته الخاصة، وشجرة الليمون في حوض الطين على شرفة ناديا، توازيه طولًا، متجذّرة في تربتها، المتجذّرة بدورها في حوض الطين، الذي يستقر

على قرميد الشرفة، التي تشبه قمة جبل هذا المبنى، الذي ينبع من الأرض نفسها، ومن هذا الجبل الترابي تصل شجرة الليمون إلى الأعلى، الأعلى، في حركة جميلة، جميلة تغدق بالحب على سعيد، وتذكّره بأهله، الذين شعر فجأة تجاههم بامتنان بالغ، وبرغبة بالسلام، ذاك السلام الذي يفترض أن يعمّ على الجميع، على كلّ فرد، على كلّ شيء، إذ نحن قمة في الهشاشة، وقمة في الجمال، ولا شكّ في أنه يمكن مداواة النزاعات لو اختبر آخرون مثل هذه التجارب، ثم نظر إلى ناديا ورآها تنظر إليه وعيناها عوالم بحد ذاتها.

لم يمسكا بيدي بعضهما البعض حتى استعاد سعيد رشده بعد ساعات طويلة، ولم يستعده كاملًا، إذ توهّم أنه من الممكن ألّا يستعيد رشده كاملًا بعد تلك اللحظة، لكن قد يقترب مما كان عليه قبل أن يتناولا حبات الفطر تلك. وعندما أمسكا بيدي بعضهما البعض، كانا يجلسان متقابلَين، ومعصمَيهما على ركبتيهما، وركبتيهما تكادان تتلامسان، ثم مال إلى الأمام ومالت إلى الأمام وابتسمت، فكانت القبلة الأولى، وأدركا أن الفجر قد انبلج ولم تعد الظلمة تخبّئهما في كنفها، وقد يراهما أحد من على إحدى السطوح، فدخلا وأكلا الطعام البارد، ليس كلّه إنما القليل منه، وكانت نكهته قويّة.

كان هاتف سعيد قد انطفأ. فأعاد شحنه في سيارة أهله من مصدر بطارية احتياطيّة يبقيها في علبة القفازات، وما إن اشتغل

هاتفه حتى صفّر معبّرًا عن ذعر والديه، وظهرت اتصالاتهما الفائتة ورسائلهما ورعبهما المتزايد تجاه طفل لم يعد بأمان تلك الليلة، الليلة التي لم يعد فيها عدد من الأطفال إلى كنف عدد من الأهالي.

لدى عودة سعيد، توجّه والده إلى سريره، وفي المرآة المجاورة للسرير، لمح رجلًا قد تقدّم في السن على حين غرة. أمّا والدته فقد شعرت بالارتياح لدى رؤيتها ابنها، وانتابها إحساس للحظة أنها عليها أن تصفعه.

لم تشعر ناديا بالرغبة بالنوم، لذا استحمّت، وكانت المياه باردة نتيجة وصول إمدادات الغاز متقطّعة إلى سخّانها. وقفت عارية، كما لحظة خُلقت، ثم وضعت على جسدها سروال الجينز والقميص والبلوزة، كما تفعل عندما تكون بمفردها في المنزل، ثم أضافت الفستان، وذلك كلّه استعداد لمواجهة ادعاءات العالم وتوقّعاته كلّها، وخرجت تتمشّى في منتزه مجاور من شأنه أن يفرغ في ذلك التوقيت من عشاق الصباح الباكر والمثليين جنسيًّا الذين غادروا منازلهم وأفسحوا المجال لأنفسهم، بأكثر مما يحتاجون من وقت، لقضاء حاجات قالوا إنهم بحاجة لإنجازها.

في وقت متأخر من ذاك اليوم، عند المساء، بتوقيت ناديا، وبعد أن انسحبت الشمس إلى ما وراء الأفق، كان الوقت صباحًا في سان دييغو في كاليفورنيا، في منطقة لا جولا، حيث يعيش رجل عجوز على مقربة من البحر، أو بالأحرى على تلّة تشرف على المحيط الهادي. كانت التجهيزات في منزله قديمة مهترئة لكن

تمّ إصلاحها بشقّ النفس، كما حديقته: موطن أشجار المسكيت والصفصاف والنباتات النضرة التي كانت شاهدة على سنوات أفضل، لكنها ما زالت متمسّكة بالحياة وخالية من أي آفة زراعية.

لقد خدم الرجل العجوز في البحرية خلال واحدة من أضخم الحروب، وكان يكنّ كلّ الاحترام لبدلته، ولأولئك الشبّان الذين رسموا الحدود الخارجيّة لملكيّته بينما يراقبهم واقفًا في الشارع مع قائدهم. يعودون به بالذاكرة إلى زمن كان فيه في سنّهم، يتمتّع بقوّتهم ولياقتهم ويقينهم من غايتهم والرابط القائم بينهم، ذاك الرابط الذي يذكر أنه كان يرى فيه هو ورفاقه رابط الأخوّة، لكنه بطريقة أو بأخرى أثبت أنه أقوى من رابط الأخوّة أو أقلّه من الرابط الذي يجمع بينه هو وبين أخيه، أخيه الصغير الذي توفي الربيع الماضي بعد معاناة مع سرطان الحلق الذي أذابه حتى حوّله إلى وزن فتاة صغيرة، والذي لم يتكلّم مع الرجل العجوز لسنوات. وعندما ذهب الرجل العجوز للاطمئنان عليه في المستشفى وجده لا يقوى على الكلام، بل ينظر بعينيه ليس إلا، وفي عينيه إرهاق وقليل من الخوف. عينين شجاعتين، في وجه أخ صغير لم يرَ فيه الرجل العجوز سابقًا يومًا رجلًا شجاعًا.

لم يملك القائد متّسَعًا من الوقت للرجل العجوز لكنّه منح الوقت لسنّه ولسجلّه في الخدمة، وهكذا سمح للرجل العجوز أن يجلس في مكان قريب لبعض الوقت قبل أن يقول له وهو يحني رأسه بكلّ احترام إنه من الأفضل لو يطوي الصفحة.

سأل الرجل العجوز القائد ما إذا كان المكسيكيون هم القادمين، أم المسلمون، لأنه لا يسعه أن يكون أكيدًا، فردّ عليه القائد إنه ليس بوسعه الإجابة، سيدي. لذا وقف الرجل العجوز صامتًا لبرهة من الزمن. وتركه القائد يقوم بذلك، بينما تم تحويل السيارات وطُلب منها الذهاب من الجهة الأخرى، وبينما جلس جيران أثرياء اشتروا ممتلكاتهم مؤخّرًا أمام نوافذهم الأمامية، وشرعوا يحدّقون. وفي نهاية المطاف، سأل الرجل العجوز كيف بإمكانه المساعدة.

فجأة شعر الرجل العجوز بنفسه طفلًا يطرح مثل هذا السؤال. والقائد يافع يصلح لأن يكون حفيده.

ردّ عليه القائد بأنهم سيعلمونه بذلك، إن لزم الأمر، سيّدي.

سأعلمك بذلك: هذا ما كان والد الرجل العجوز يقوله له عندما كان يتسبّب بالإزعاج. وبطريقة ما، بدا القائد أكثر شبهًا بوالده منه بالرجل العجوز، مثل والده عندما كان الرجل العجوز لا يزال غلامًا.

عرض القائد أن يتدبّر أمر إيصال الرجل العجوز، لو أراد، عند أقرباء له أو ربما أصدقاء.

كان يومًا دافئًا وصافيًا ومشمسًا من بدايات فصل الشتاء. في البعيد، إلى الأسفل، يجدف راكبو الأمواج بملابس الغوص. فوق المحيط، في الأفق، تظهر طائرات الشحن الرمادية اللون قبل أن تحطّ في كورونادو.

تساءل الرجل العجوز أين يذهب، وبينما يفكّر في الموضوع، أدرك أنه لا يسعه أن يختار مكانًا واحدًا.

بعد الاعتداء على البورصة في مدينة سعيد وناديا، بدا وكأن المسلّحين قد غيّروا استراتيجيتهم، وازدادوا ثقة، وعوض أن يفجّروا بالكاد متفجّرة هنا أو ينظموا إطلاق نار هناك، بدأوا يستولون على مواقع في المدينة. أحيانًا مبنى، وأحيانًا أخرى حي بأكمله. يستولون عليه لساعات، ولأيام في بعض المناسبات. غير أن كيفية وصول هذا الكم الكبير منهم بهذه السرعة من معاقلهم في التلال بقي سرًّا من الأسرار، لكن المدينة كانت شاسعة ومتمدّدة ويستحيل بترها عن محيطها من المناطق الريفية. فضلًا عن ذلك، من المعروف أن للمسلّحين أنصار من الداخل.

فُرض أخيرًا حظر التجوّل الذي انتظره أهل سعيد مطوّلًا، وطُبّق بحماسة بالغة، ولم يقتصر على حواجز أكياس رمل وأسلاك شائكة تتمدّد وحسب، بل توسّع ليشمل مدافع وآليات قتال للمشاة ودبّابات مزوّدة بأبراج مراقبة ودروع متفجّرة. ذهب سعيد مع والده لأداء فريضة الصلاة في أول جمعة تلت بدء حظر التجوّل، فصلّى سعيد من أجل السلام، وصلّى والد سعيد من أجل سعيد، وحثّ الشيخ في خطبته المصلّين على الصلاة كي ينتصر الحق في هذه الحرب، لكنّه امتنع بحذر عن تحديد الجهة التي يخالها محقة في النزاع.

بينما كان يمشي عائدًا إلى الحرم الجامعي، وابنه يقود السيارة عائدًا إلى عمله، شعر والد سعيد أنه أخطأ في اختيار مهنته، وأنه كان يجدر به أن يأخذ خيارًا آخر في حياته، إذ كان عندئذ سيملك من المال ما يمكّنه من إرسال سعيد إلى الخارج. لربما تصرّف بأنانيّة، على اعتبار أن مفهومه القائم على مساعدة الشباب والبلاد من خلال التعليم والأبحاث لا يتعدى كونه تعبيرًا عن غرور، ولكان المسار الأكثر حكمة لو سعى لتحقيق الثراء بأي ثمن.

صارت والدة سعيد تصلّي في المنزل، وقد حرصت مؤخّرًا على ألّا تفوّت أي فرض، بل أصرّت على الإدّعاء أن شيئًا لم يتغيّر، وأن المدينة قد شهدت أزمات مماثلة في السابق، على الرغم من أنها تعجز عن تحديد الفترة الزمنية، وأن الصحافة المحليّة والإعلام الأجنبي تضخّم المخاطر. إلا أنها، عانت صعوبات في النوم، وجلبت من الصيدلانية، وهي امرأة تثق بعدم ثرثرتها، مهدّئ أعصاب تتناوله سرًّا قبل النوم.

في المكتب حيث يعمل سعيد، تحوّل العمل بطيئًا، مع أن ثلاثة من زملائه الموظفين قد توقفوا عن العمل فكان لا بدّ من تكدّس المهام على أولئك الذين ما زالوا مستمرّين في العمل. وتركزت الأحاديث تحديدًا حول نظريات المؤامرة، ووضعية القتال، وكيفية الخروج من البلاد – خاصة وأنه يستحيل على غير الأثرياء الحصول على تأشيرات تتيح لهم الخروج، وهذه كانت شبه مستحيلة في السابق. وبما أن الرحلات على الطائرات

والسفن صارت خارج البحث، فقد باتت المزايا النسبية، أو بالأحرى المخاطر التي تعترض مختلف الطرق البرّية، محطّ تخمين وتدقيق مرارًا وتكرارًا.

أما في مكان عمل ناديا، فالوضع كان مماثلًا، تضاف إليه المؤامرة النابعة من مديرها ومدير مديرها الذين قيل إنهما هربا إلى الخارج، إذ لم يعد أي منهما من عطلته كما كان مقرَّرًا. فبقيت مكاتبهما فارغة وراء القواطع الزجاجية التي تفصل المكاتب – وتظهر بزة متروكة في غطائها المغبر معلقة على أحد الرفوف– بينما بقيت صفوف المكاتب المفتوحة مشغولة بمعظمها، بما فيها مكتب ناديا التي كانت تقضي معظم وقتها على الهاتف.

بدأت ناديا وسعيد يلتقيان خلال النهار، إجمالًا في وقت الغداء في مطعم يقدّم وجبات برغر رخيصة ويقع على مسافة متوازية تقريبًا من مكانَي عمليهما. وقع خيارهما على مقصورات نائية تقع في خلفيّة المطعم وتمنح نوعًا من الخصوصية، فراحا يمسكان بيدي بعضهما البعض تحت الطاولة، بينما عمد أحيانًا إلى مداعبة الجانب الداخلي من فخذها ووضعت هي راحة يدها على سحّاب سرواله، لكن للحظات خاطفة، ونادرة، في الفترات التي يبدو فيها أن النُدُل والزبائن لا يعيرونهما أي نظرة، فأخذا يعذّبان بعضهما البعض على هذا النحو. وبما أن التجول بين فترة الغسق والفجر ممنوع، لم يكن بإمكانهما اللقاء وحيدين من دون أن يقضي سعيد الليل بأكمله عندها، وهي خطوة بدت لها جديرة

بالمخاطرة، لكنها بالنسبة إليه خطوة لا بد من تأخير اتخاذها، إذ لم يدرِ ماذا يقول لأهله من ناحية، ومن ناحية أخرى خشي أن يتركهما بمفردهما.

أغلب تواصلهما كان يجري عبر الهاتف، رسالة من هنا، ورابط لمقالة من هناك، وصورة يتبادلانها عن نفسيهما في العمل، أو في المنزل، أو أمام نافذة عند مغيب الشمس أو لحظة يهبّ النسيم، أو مجرد ملامح مضحكة يرسمانها على وجهيهما.

كان سعيد واثقًا أنه عاشق. أما ناديا، فلم تكن متأكدة مما تشعر به تحديدًا، لكنها واثقة أن ثمة طاقة في ما تشعر به. فالظروف الدراماتيكية مثل تلك التي وجدا نفسيهما فيها، كما عشّاق آخرون في المدينة، تعمد إلى خلق مشاعر دراماتيكية. وعلاوة على ذلك، أدى حظر التجوّل فعله فقام مقام علاقة بعيدة المدى، ومعروف عن العلاقات البعيدة المدى قدرتها على استثارة العواطف، أقلّه لفترة من الزمن، مثلها مثل الصوم الذي يضاعف من تقدير الصائم للطعام.

مرّت أول عطلتَيْ نهاية أسبوع في ظل حظر التجولّ وانتهتا من غير أن يلتقيا، إذ إن اندلاع القتال جعل التنقّل في محيط سعيد أولًا، ثم في محيط ناديا، من سابع المستحيلات، فأخذ سعيد يحوّل إلى ناديا نكاتًا شعبيّة حول المقاتلين الذين يرغبون بكلّ احترام بالتأكد من أن سكان المدينة ينعمون بالراحة المناسبة في أيام عطلتهم. في المقابل، نفّذ الجيش ضربات جوّية في العطلتين،

مما أدى إلى تحطّم نافذة حمام سعيد بينما كان يستحم، والتسبّب كما الزلزال باهتزاز ناديا وشجرة الليمون بينما كانت تجلس على شرفتها تدخّن سيجارة حشيش. وراحت المقاتلات تعصف في سماء المدينة.

لكن في عطلة الأسبوع الثالثة، ساد هدوء نسبي فذهب سعيد إلى ناديا. التقيا في مقهى مجاور لمنزلها بما أنه من الخطورة بمكان أن ترمي ناديا فستانًا إلى الشارع في وضح النهار، أو أن يقوم هو بتبديل ملابسه في الخارج، فوضع عليه الفستان في حمام المقهى بينما ذهبت تسدّد الفاتورة ثم تبعها إلى داخل المبنى، بعد أن غطّى رأسه وخفض عينيه إلى الأرض، وما إن وصلا إلى الأعلى ودخلا الشقة، حتى اندسّا في سريرها وكانا شبه عاريين معًا. وبعد كثير من المداعبات، وهو ما اعتبرته تأخيرًا مبالغًا به، سألته إن كان قد أحضر معه واقيًا ذكريًّا، فأمسك وجهها بين يديه وقال: «لا أظن أنه علينا ممارسة الجنس قبل أن نتزوّج».

فضحكت ملء رئتيها واقتربت منه أكثر فأكثر. وهز رأسه مؤكدًا رفضه.

فتوقّفت محدّقة بها قائلة: «هل تمزح أم ماذا؟»

للحظة واحدة تملّك ناديا غضب جامح لكن بينما أخذت تنظر إلى سعيد، بدا وكأنه قد تحطّم وفقد أي شهوة. فلان قلبها قليلًا وابتسمت ابتسامة صغيرة وضمّته أكثر إلى صدرها لتعذيبه واختباره في آن، ثم وجدت نفسها تقول: «لا بأس، سنرى».

بعد ذلك، وبينما كانا يستلقيان في الفراش يستمعان إلى أسطوانة قديمة ومخدوشة قليلًا تعزف موسيقى برازيلية، أخذ سعيد يريها على هاتفه صورًا التقطها مصوّر فرنسي لمدن شهيرة في الليل، لا تضيئها سوى لألآت النجوم.

سألته ناديا: «وكيف تمكنّ من أن يطلب من الجميع أن يطفئوا الأنوار؟»

فأجابها سعيد: «لم يفعل ذلك. بل أزال الأنوار. أعتقد أنه أزالها بواسطة الكمبيوتر».

«وترك النجوم تتلألأ؟»

«كلا، فوق هذه المدن، بالكاد ترين النجوم. تمامًا كما هنا. كان عليه أن يتوجّه إلى أماكن مهجورة. أماكن لا أنوار بشريّة فيها. فلتصوير سماء كلّ مدينة، تعيّن عليه التوجّه إلى مكان مهجور يكون في أقصى الشمال أو أقصى الجنوب، مبدئيًا عند خط العرض نفسه، المكان نفسه الذي ستكون فيه المدينة بعد ساعات قليلة، عندما تدور الأرض، وما إن وصل إلى هناك حتى وجّه عدسة الكاميرا إلى الاتجاه نفسه».

«هكذا حصل على السماء نفسها التي كانت لتحصل المدينة عليها لو خيّم الظلام؟»

«نعم، السماء نفسها، لكن بتوقيت مختلف».

فكّرت ناديا بالأمر. جمال هذه المدن الشبح أخّاذ- من نيويورك إلى ريو وشنغهاي وباريس- تحت نجومها الساطعة،

كما لو أنها صور من عصر سبق اكتشاف الكهرباء، لكنه ازدان بمباني اليوم. ولم تستطع أن تقرّر ما إذا كانت تبدو صنيعة الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

في الأسبوع التالي، بدا وكأن استعراض القوة الذي مارسته الحكومة قد نجح. فلم تقع أي هجمات جديدة تُذكر على المدينة. كما تداول الناس شائعات عن إمكانية رفع حظر التجوّل.

لكن في أحد الأيام، اختفى بكل بساطة إرسال كل هاتف خلويّ في المدينة وانقطع كليًّا كما لو أن الهاتف قد أُطفئ. وقد أُعلن عن قرار الحكومة عبر التلفزيون والإذاعة، كتدبير مؤقّت لمكافحة الإرهاب، حسبما قيل، لكن من دون تحديد أي تاريخ لانتهائه. كما تمّ تعليق الاتصال بشبكة الانترنت.

لم تملك ناديا خطًّا ثابتًا في منزلها. أما خط سعيد الثابت فلم يعمل منذ أشهر. فما كان من ناديا وسعيد، وآخرين لا يحصى عددهم إلّا أن شعروا بالعزلة والوحدة والخوف المتزايد، بعدما حُرموا من أجهزتهم التي تصل بعضهم ببعض وتنقلهم إلى العالم الذي تكتنزه الهواتف الخلوية، وحوصروا في شققهم نتيجة حظر التجوّل ليلًا.

الفصل الرابع

انتهى الصف المسائي الذي كان كلّ من سعيد ونادیا يرتادانه مع قدوم أولى بشائر الشتاء عبر الضباب الدخانيّ الكثيف، وعلى كلّ الأحوال ما كان لصفوف مثل صفوفهما أن تستمر في ظل حظر التجوّل. لم يزر أيّ منهما مكتب الآخر، لذا ما كانا يعلمان كيف يتّصلان ببعضهما البعض خلال النهار، ومن دون هاتفيهما الخلويين وإمكانية النفاذ إلى الإنترنت ما من طريقة متوفّرة لهما لاستعادة الاتّصال. فكأنهما خفافيش فقدت قدرتها على استخدام أذنيها، وتاليًا قدرتها على إيجاد الأشياء بينما تطير في الظلام. في اليوم الذي تلا انقطاع الإرسال عن هاتفيهما، ذهب سعيد إلى مطعم البرغر الذي اعتادا اللقاء فيه وقت الغداء، لكنّ نادیا لم تأتِ. وفي اليوم التالي، عندما ذهب مجدّدًا، كان المطعم قد أغلق، ربما لأن مالكه قد هرب، أو اختفى بكلّ بساطة.

كان سعيد على علم بأن نادیا تعمل في شركة ضمان، فاتّصل من مكتبه بعامل الهاتف وطلب منه أسماء شركات الضمان وأرقامها، وحاول أن يتّصل بها كلّها، الواحدة تلو الأخرى،

باحثًا عنها في كلّ واحدة من تلك الشركات. غير أن تلك المهمّة استلزمت وقتًا طويلًا، فهاتف الشركة كان يرزح تحت الضغط المفاجئ بسبب الحاجة إلى إصلاح البنى التحتية التي دمّرها الاقتتال، لذا فإن عمل الخط الثابت في مكتب سعيد لم يكن بأفضل حالاته، بل يعمل على نحو متقطّع. وعندما عاد إلى العمل، نادرًا ما أمكن التواصل مع عامل الهاتف وسط سيل الطلبات والاتصالات، فألزم هذا العامل - على الرغم من توسلات سعيد اليائسة، والتوسلات اليائسة كانت السائدة في تلك الأيام- بحصر الاتصالات باتصالين لكل شخص. وعندما نجح سعيد أخيرًا في الحصول على رقمين جديدين من الأرقام لتجربتها، بدا في أغلب الأحيان أن أقلّه رقمًا واحدًا، أو الرقمين معًا، خارج الخدمة في كل يوم من الأيام، فكان يرن ويرن ويرن بلا هوادة.

أمضت ناديا ساعات الغداء وهي تعدو إلى المنزل لتكدّس المؤن. فاشترت أكياس طحين وأرز ومكسرات وفاكهة مجفّفة وزيت وعلب حليب مجفّف ومعلّبات لحم وسمك. كلّها بأسعار باهظة. وكانت ذراعاها تئنان وجعًا بسبب حمل المؤونة إلى منزلها، الحمل بعد الآخر. كانت مولعة بأكل الخضار، لكن الناس قالوا إن المهم هو الحصول على أكبر قدر ممكن من السعرات الحرارية وتخزينها قدر الإمكان، وبالتالي فإن الأطعمة مثل الخضار، التي تأخذ حجمًا كبيرًا مقارنة بكمية الطاقة التي

يمكن أن توفرها، والتي تتعرض للتلف، هي أقل فائدة. ولكن سرعان ما فرغت رفوف المحلات التجارية بالقرب من منزلها. فرغت حتى من الخضروات، وعندما وضعت الحكومة سياسة تقضي بتحديد عملية الشراء بكميّة معينة في اليوم، أصيبت ناديا، شأنها في ذلك شأن كثيرين آخرين، بالذعر والارتياح على حد سواء.

في عطلة نهاية الأسبوع، ذهبت عند الفجر إلى مصرفها ووقفت في صفّ قد أصبح طويلًا نسبيًا، منتظرة أن يفتح المصرف أبوابه، لكن عندما فتح، أصبح الصف عبارة عن حشد مزدحم، فوجدت نفسها مضطرة لأن تحشر نفسها وتدفع إلى الأمام كما الآخرين. وفي خضمّ هذا الحشد الجامح، عمد أحدهم إلى لمسها من الخلف، فدفع بيده إلى أسفل ردفيها، بين ساقيها، محاولًا أن يدخلها بإصبعه. ولكنه عجز عن ذلك بفعل طبقات القماش المؤلّفة من فستانها وسروالها وملابسها الداخلية. إنما كاد أن ينجح قدر المستطاع في ظلّ هذه الظروف، مستخدمًا قوة مهولة، بينما تُدفع وتلتصق بالأجسادمن حولها، عاجزة عن الحراك أو حتى رفع يدها، وقد تملّكها الذهول فحال دون صراخها، بل جلّ ما أمكنها فعله هو ضمّ فخذيها إلى بعضهما وشدّ فكّيْها، فأطبق فمها تلقائيًا، فيسيولوجيًا أو غريزيًا، جسد يحكم الإغلاق على نفسه.ثم تحرّك الحشد واختفى الإصبع، ولم يمرّ وقت طويل قبل أن يعمد رجال ملتحون إلى فصل الرعاع في خطّين، رجالًا

ونساء، فصارت في خط النساء، ولم يأت دورها عند الصندوق إلا ما بعد الغداء. سحبت من النقود مقدار ما هو مسموح لها وخبأتها في عبّها وفي حذائها ووضعت القليل منها في حقيبتها، ثم توجّهت إلى صرّاف لتحويل بعض من تلك النقود إلى دولار ويورو، ثم ذهبت إلى بائع مجوهرات لتحويل الباقي إلى ليرات ذهبية صغيرة، مسترقة النظر باستمرار للتأكد من أن أحدًا لا يتبعها. ثم توجّهت إلى المنزل، حيث وجدت رجلًا ينتظر عند المدخل، وينظر إليها. وعندما رأته حاولت أن تصمد رافضة أن تبكي، مع أنها كانت كلّها كدمات وخائفة وغاضبة. هذا الرجل، الذي جلس في انتظارها طوال اليوم، ما هو إلا سعيد.

رافقته إلى الأعلى، ناسية أنه يمكن لأحد أن يراهما، أو غير عابئة بذلك، لذا لم تكترث هذه المرة لتزويده بفستان. وهناك، في الأعلى، أعدّت الشاي لهما ويداها ترتجفان، تجد صعوبة في الكلام. كانت محرجة وغاضبة من مدى سرورها لرؤيته، فشعرت أنّ بإمكانها الصراخ عليه في أي وقت. وقد لاحظ الضيق في عينيها ففتح الأكياس التي جلبها معه بصمت وأعطاها موقد تخييم يعمل على الكيروسين، ووقودًا إضافيًا، وعلبة عيدان كبريت كبيرة، وخمسين شمعة، وعلبة أقراص الكلورين لتعقيم المياه».

وقال: «لم أجد أي أزهار».

فابتسمت أخيرًا نصف ابتسامة وسألته: «هل لديك مسدّس؟»

دخّنا الحشيش وجلسا يستمعان إلى الموسيقى، وبعد فترة من الزمن حاولت ناديا أن تحمل سعيد على ممارسة الجنس معها، ليس لأنها شعرت بأنها مثيرة على وجه التحديد، بل لأنها أرادت أن تنزع من ذاكرتها ذاك الحادث الذي وقع لها خارج المصرف. ومرّة أخرى نجح سعيد في ردع نفسه، حتى بينما كانا يداعبان بعضهما البعض. فأخبرها مجدّدًا أنه لا يفترض بهما أن يمارسا الجنس قبل أن يتزوّجا، وأن فعل ذلك مخالف لمعتقداته، لكنّها لم تدرك أن كلماته نوع من طلب الزواج إلا عندما اقترح عليها أن تنتقل للعيش مع أهله ومعه.

أخذت تداعب شعره بينما استقرّ رأسه على صدرها وسألته: «هل تقول إنك تريد أن تتزوج؟»

«نعم».

«بي؟»

«بأي كان، حقًا». فشخرت مدهوشة.

وردّ مسوّيًا جلسته وناظرًا إليها، «نعم، بك». فلم تنبس ببنت شفة.

سألها: «ما رأيك؟»

شعرت بعاطفة كبرى تجتاحها تجاهه في تلك اللحظة، بينما كان ينتظر ردّها. كما شعرت برعب هائل يتزايد داخلها إضافة إلى شيء ما أكثر تعقيدًا، شيء قارب الاستياء.

أجابت: «لا أدري».

فقبّلها قائلًا: «حسنًا».

وعندما همّ بالمغادرة، دوّنت عنوان مكتبه ودوّن عنوان مكتبها، وأعطته فستانًا أسود ليرتديه، طالبة منه ألّا يقوم بإخفائه في الفجوة بين بنايتها والبناية المجاورة، حيث عمد سابقًا إلى إخفاء الفساتين التي كان يتركها لها، بل أن يدعه معه. وأعطته مجموعة مفاتيح أيضًا وهي تشرح: «حتى تتمكّن أختي من الدخول في المرة المقبلة، إن هي وصلت قبلي».

وتبسّم كلاهما ضاحكًا.

لكن عندما غادر، راحت تسمع صوت الانفجارات المدمّرة الصادرة عن مدفعيّة بعيدة، بالإضافة إلى صوت انهيار المباني، إذ يبدو وكأن قتالًا واسع النطاق قد تجدد في مكان ما، فشعرت بالقلق عليه في طريق عودته إلى المنزل، وأخذت تفكّر كم من غير المنطقي أنها ستضطر للانتظار حتى تذهب إلى عملها في اليوم التالي لتكتشف ما إذا كان قد عبر المسافة إلى منزله بأمان.

أغلقت ناديا بابها ونجحت بعد مشقّة في دفع الكنبة إليه، حتى يصبح مسدودًا من الداخل.

في تلك الليلة، في شقّة على السطح ليست بعيدة الشبه عن شقّة ناديا، في حيّ ليس بعيدًاعن حيّ ناديا، وقف رجل شجاع على ضوء شعلة منبعثة من هاتفه الخلوي وأخذ ينتظر. يمكنه أن يسمع من حين إلى آخر، المدفعيّة نفسها التي تسمعها ناديا، وإن على نحو أقوى. فقد أخذت نوافذ شقّته تهتز، وإن برفق، من دون أي خطر حتى هذه اللحظة قد يلحق بأي منها.

لم يكن الرجل الشجاع يملك ساعة يد أو شعلة، لذا أخذ هاتفه الفاقد أي إرسال ليقوم بتلك المهمتين، وارتدى سترة شتوية ثقيلة وضع في جيبها الداخلي مسدسًا وسكينًا مع شفرة يبلغ طولها طول يده.

رجل آخر بدأ يطلّ من باب أسود في طرف الغرفة، باب أسود حتى في العتمة، أسود على الرغم من الشعاع المنبعث من شعلة الهاتف، وراح الرجل الثاني يراقب الرجل الأول. يراقبه من مكانه بالقرب من الباب الأمامي لكنه لم يقم بأي حركة توحي بالمساعدة. بالكاد أنصت الرجل الشجاع للأصوات الآتية من السلالم في الخارج، لغياب أي صوت من السلالم في الخارج، ووقف في مكانه حاملًا هاتفه وممسكًا المسدس داخل جيب معطفه، يراقب من دون أن يُحدِثَ أي ضجة.

كان الرجل الشجاع متحمسًا، مع أنه يصعب رؤية ذلك في الظلمة وفي تعابير وجهه الغائبة كالمعتاد. كان مستعدًا للموت، لكنّه لم يخطّط له، بل خطّط للعيش، وخطّط للقيام بأمور عظيمة بينما يعيش.

أما الرجل الثاني، فتمدّد على الأرض وحمى عينيه من الضوء مستجمعًا قواه، وبندقية هجوم روسية بالقرب منه. لم يستطع أن يرى مَنْ يقف عند الباب الأمامي، لكنّ أحدهم هناك.

وقف الرجل الشجاع ويده على مسدّسه، ينصت وينصت.

ووقف الرجل الثاني على قدميه.

حرّك الرجل الشجاع شعلة هاتفه، جاذبًا الرجل الثاني إلى الأمام، مثلما قد تفعل سمكة صيادة وهي تغوص في الأعماق الحبريّة، وعندما اقترب الرجل الثاني وأصبح في دائرة اللمس، فتح الرجل الشجاع الباب الأمامي للشقة، وخرج الرجل الثاني عبره إلى هدوء السلالم. ثم أغلق الرجل الشجاع الباب ووقف جامدًا مرة أخرى، منتظرًا مرور شخصٍ آخر.

التحق الرجل الثاني بالقتال في غضون ساعة، من بين آخرين كثر، بينما المعارك التي بدأت الآن واستعرت من دون أيّ توقّف ملحوظ ازدادت شراسة، وتراجعت تفاوتًا، مقارنة بما كانت عليه في السابق.

تكشّفت الحرب في مدينة سعيد وناديا عن تجربة حميمة، إذ تلاصقت أجساد المقاتلين، وتحدّدت خطوط الجبهات بمستوى الشارع الذي يسلكه أحدهم للتوجّه إلى عمله، والمدرسة التي تذهب إليها شقيقة شخصٍ آخر، والمنزل الذي تسكن فيه عمة أفضل صديق، والمكان الذي يشتري منه أحدهم السجائر. خيّل لوالدة سعيد أنها رأت أحد تلامذتها السابقين يطلق النار بإصرار وتركيز بالغَيْن وهو يدير سلاحًا آليًا موضوعًا على شاحنة. نظرت إليه ونظر إليها لكنّه لم يستدر ويطلق النار عليها، لذا اشتبهت بأنه هو، مع أن والد سعيد قال إن ذلك قد لا يعني أكثر من أنها رأت رجلًا يرغب في أن يطلق النار في اتجاهٍ آخر. تذكّرت الصبيّ: خجولًا، يتلعثم، لكنه حذق في الرياضيات، صبياً مهذّبًا لم يسعها

أن تتذكّر اسمه. فتساءلت إن كان حقًا هو، وما إذا كان يفترض بها أن تشعر بالجزع أو بالارتياح. وافترضت أنه لو ربح المقاتلون، فلربما ليس من السيء أن تكون على معرفة بأناس من جانبهم.

سقطت الأحياء في قبضة المقاتلين بسرعة وتواتر ملفتَيْن، حتى باتت الخارطة الذهنية لدى والدة سعيد للمكان الذي قضت فيه حياتها كاملة أشبه بلحاف قديم مرقّط برِقَع من الأراضي التابعة للحكومة وأخرى تابعة للمسلحين. أما الدرزات المتهالكة بين الرقع فهي المساحات الأكثر هلاكًا، ولا بد من تجنّبها بأي ثمن، فقد اختفى جزّارها والرجل الذي يصبغ القماش الذي صنعت منه مرّة ثياب العيد في مثل هذه الفجوات، وتحطّمت محالّهم وطُمرت بالركام والزجاج.

اختفى الناس في تلك الأيام، وفي أغلب الأحيان، لم يدرِ المرء - أقلّه لفترة من الزمن- ما إذا كانوا أحياء أم أموات. مرّت ناديا مرّة بالقرب من منزل أهلها عن قصد، لا لتكلّمهم، بل لترى من الخارج إن كانوا هناك. غير أن المنزل الذي تخلّت عنه بدا مهجورًا، وليس هناك أي دليل على وجود سكّان فيه أو حتى حياة. وعندما زارته مجدّدًا، كان قد اضمحلّ، وبات لا يسعها التعرّف عليه، بعد أن سُحق المبنى بفعل قنبلة قُدّر وزنها بوزن سيارة. وإذا لم يكن بوسع ناديا أن تحدّد يومًا مصيرهم، إلا أنها ما انفكّت تأمل أنهم وجدوا سبيلًا للخروج بلا أي أذى، تاركين المدينة لضراوة المقاتلين الذين بدوا من الجانبين سعداء بتسوية المدينة بالأرض من أجل إحكام السيطرة عليها.

كانت هي وسعيد محظوظين لبقاء منزليهما لفترة من الزمن في الأحياء الخاضعة لسيطرة الحكومة، لذا تجنّبا بعضًا من أسوأ مراحل الاقتتال والضربات الجوية الثأرية التي نفّذها الجيش على مواقع لم تكن بالكاد محتلّة بل لمجرّد اعتبارها خائنة.

اغرورقت عينا مدير سعيد بالدموع عندما أعلن لموظّفيه أنه سيقوم بإقفال عمله، معتذرًا عن خذلانهم، وواعدًا بالاحتفاظ بوظائف لهم جميعًا ما إن تتحسّن الأمور وتتمكّن الوكالة من استعادة أعمالها. وقد بلغ حدًا من الاضطراب حتى بدا لأولئك الذين توجّهوا لتحصيل آخر راتب لهم أنهم بذلك يراضونه. فقد اتّفق الجميع على أنه رجل محترم وحسّاس، ممّا يدعو للقلق، إذ إن تلك الأوقات لا تليق بمثل هؤلاء الرجال.

في مكتب ناديا، توقّف قسم المحاسبة عن إعطاء الشيكات، وفي غضون أيّام، توقف الجميع عن القدوم إلى العمل. لم تقع أي لحظات وداع، أو أقلّه لم تشارك ناديا في أيّ منها. وبما أن رجال الأمن كانوا أوّل من اختفى، فقد بدأ نوع من النهب الهادئ، أو الدفع بواسطة الأجهزة، فغادر الناس محمّلين بما استطاعوا إليه سبيلًا. أما ناديا، فحملت جهازَيْ كمبيوتر محمولَيْن بحقيبتيهما والتلفزيون المسطّح الذي كان في طابق عملها، لكنّها اضطرت في النهاية للتخلي عن التلفزيون إذ لم تقوَ على حمله على درّاجتها النارية فأعطته لزميل نكِدٍ شكرها بأدب.

في الوقت الراهن، تبدّلت علاقة الفرد بالنوافذ في المدينة.

فأضحت النافذة الحدود التي يمكن من خلالها للموت أن يعبر. فلم تتمكن النوافذ من التصدي حتى لأكثر الذخائر وهنًا: إذ إن أيّ بقعة في الداخل تطلّ على الخارج هي بقعة يُحتمَل وقوعها على خط النار. علاوة على ذلك، قد يتحوّل لوح النافذة الزجاجي بحدّ ذاته بكل سهولة إلى شظايا تتطاير بفعل تفجير مجاور، وجميعنا سمع عن أن أحدهم قد نزف بعد أن أصابه الزجاج المتطاير.

وبما أن عددًا من النوافذ قد تحطّم، فمن الآمن أن تتم إزالة تلك التي بقيت. لكن الفصل فصل الشتاء والليالي باردة، ومن دون غاز ولا كهرباء، إذ مخزون كليهما في تراجع متزايد، شكّل زجاج النوافذ بعضًا من وقاية من البرد، لذا تركها الناس في أماكنها.

عوضًا عن ذلك، أعاد سعيد وعائلته ترتيب الأثاث. فوضعوا رفوف الكتب المكتظّة مقابل النافذة في غرف نومهم، مما شكّل حاجزًا أمام الزجاج لكنه سمح للضوء بالتسلل من الأطراف، وأوقفوا سرير سعيد على النوافذ العالية في غرفة الجلوس، بفرشه وجوانبه، في وضعيّة مستقيمة، حتى باتت أقدام السرير تستقرّ على العتبة. أما سعيد، فنام على ثلاث سجادات على الأرض، قائلًا لوالديه إنها تناسب ظهره.

ألصقت ناديا على نوافذها من الداخل شريطًا لاصقًا بنّي اللون فاتحًا، من ذلك الذي يستخدم عادة لختم الصناديق، ثم وضعت عليها أكياس قمامة متينة ثبتتها بواسطة مسامير دقّتها في أطر

النوافذ. وإذا ما عاد التيّار الكهربائي وأسرعت لشحن بطاريتها الاحتياطية، تراها تستلقي وتستمع إلى التسجيلات على ضوء لمبة وحيدة عارية، وأصوات الاقتتال الفظيعة تكتمها الموسيقى التي تسمعها، ثم تلقي بنظرة إلى النوافذ فتخالها شيئًا من أعمال سود غير متبلورة من الفن المعاصر.

كما أن تأثير الأبواب على الناس قد تغيّر. فقد سرت شائعات مفادها أن الأبواب يمكن أن تحملك إلى مكان آخر، غالبًا إلى أماكن بعيدة، فتخلّصك من فخ الموت الذي يحاصرك في تلك البلاد. وقد ادّعى البعض أنهم يعرفون بعضًا آخر يعرفون آخرين قد عبروا مثل هذه الأبواب. يقولون إن بابًا عاديًا يمكنه أن يتحوّل إلى باب استثنائي، وقد يحصل ذلك بلا سابق إنذار، لأي باب. وإذا كان أغلب الناس قد اعتبروا هذه الشائعات هراءً، وخرافات صادرة عن صغار العقول، إلا أن أغلب الناس بدأوا ينظرون إلى أبوابهم الخاصة على نحو مغاير.

كما ناقشت ناديا وسعيد هذه الشائعات واستبعداها. لكن كل صباح، عندما تستيقظ من نومها، كانت ناديا تنظر إلى الباب الأمامي، وأبواب حمّامها وخزانتها وشرفتها. كلّ صباح، في غرفة نومه، كان سعيد يقوم بالمثل. إلا أن أبوابهما كلّها بقيت أبوابًا عادية، تفتح وتغلق بين مكانين مجاورين، لكنّ كلّ باب، بالنظر إليه بشيء من الاحتمال اللاعقلاني، يبدأ يتحرّك جزئيًا، أداة تنطوي على قوة خفيّة تمكّنها من السخرية، السخرية من

رغبات أولئك الذين يرغبون بالذهاب بعيدًا، فتهمس بصمت من إطار الباب أن مثل هذه الأحلام ما هي إلا أضغاث أحلام.

من دون عمل، لم يبرز أي عائق أمام سعيد ونانديا يمنع لقاءهما خلال النهار إلا القتال، لكن هذا العائق كان عائقًا جدّيًّا. فالقلّة المتبقية من المحطّات المحلّية التي حافظت على بثّها كانت تقول إن الحرب تسير قدمًا. إنما المحطّات الأجنبية تفيد بعكس ذلك، مؤكّدة أن الحرب في الواقع سيئة، وأنها تضيف سيلًا غير مسبوق من اللاجئين الذين يصلون إلى الدول الغنية، التي تبني بدورها جدرانًا وأسوارًا لحماية حدودها، لكن من دون أي فائدة تذكر. أما المسلّحون فحظوا بإذاعة راديو خاصة بهم قد قرصنوها، يطلّ عبر أثيرها مذيع عذب الصوت مثير على نحو مقلق، يتكلّم ببطء عنوةً ويدّعي، بتباطؤ يقارب وتيرة موسيقى الراب، أن سقوط المدينة بات وشيكًا. أيًا كانت الحقيقة، فقد كان الخروج والتنقل خطيرًا، لذا فضّل سعيد ونانديا أن يلتقيا في منزلها.

وطلب منها سعيد مرّة أخرى أن تنتقل للعيش معه ومع عائلته، مؤكّدًا أنه يستطيع شرح الأمور لأهله، وأنها تستطيع أن تحصل على غرفته، بينما ينام هو في غرفة المعيشة، ولا داعٍ لأن يتزوجا، لكن عليهما أن يمارسا العفّة في المنزل احترامًا لأهله، وأن ذلك أكثر أمنًا بالنسبة إليها، إذ لا يمكن في هذه الأوقات أن يبقى أحدهم بمفرده. ولم يضف أن الوضع غير آمن تحديدًا لامرأة تعيش بمفردها، لكن كلاهما أدرك أنه يفكر بذلك. وهذا صحيح،

حتى لو سعت إلى صدّ اقتراحه. شعر أن المسألة أربكتها، فلم يكرّرِ الأمر، لكن عرضه بقي قائمًا كي تفكّر به.

باتت ناديا تدرك في قرارة نفسها أن تلك لم تعد مدينة يمكن فيها السيطرة على المخاطر التي تحدق بامرأة تعيش بمفردها، كما ازداد قلقها واضطرابها كلّما قاد سعيد سيارته لملاقاتها. لكن جزءًا منها أخذ يقاوم فكرة انتقالها معه، أو مع أي أحد آخر، إذ تذكر الصعوبة الكبرى التي رافقت انتقالها للعيش هنا، وقد أصبحت متعلّقة بشقتها الصغيرة، والحياة التي بنتها هنا على الرغم من وحدتها. كما وجدت أن العيش بعفة، كنصف عشيقة ونصف شقيقة لسعيد على تماس مع أهله أمرًا غريبًا، ولكانت انتظرت وقتًا أطول لو لم تقتل والدة سعيد، بعد أن عبرت رصاصة طائشة من العيار الثقيل زجاج سيارة العائلة مقتلعة ربع رأس والدته، ليس بينما كانت تقود السيارة، إذ لم تقُد منذ أشهر، بل بينما كانت تبحث داخلها عن حلقة أذن اعتقدت أنها أضاعتها هناك،.وعندما رأت ناديا حالة سعيد ووالد سعيد عندما جاءت إلى شقتهما للمرة الأولى، يوم العزاء، قرّرت أن تبقى معهما تلك الليلة لتقف إلى جانبهما وتواسيهما، لكنها لم تقضِ أي ليلة أخرى في شقتها مجددًا.

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

الفصل الخامس

أضحت المآتم أقصر وأسرع هذه الأيام، بنتيجة الاقتتال. وقد اضطرت بعض العائلات لدفن موتاها في فناء أو إلى جانب مسقوف من أي طريق، إذ استحال الوصول إلى مقبرة فعليّة، لذا نشأت مقابر مرتجلة، ليجذب جسد فانٍ آخر، بالطريقة نفسها التي يؤدي فيها وصول مستوطن واحد يستحوذ على قطعة أرض حكومية مهملة إلى نشوء حي فقير بأكمله.

وكان من الطبيعي أن يعجّ منزل يشهد عزاء بالأقرباء والمواسين لعدد من الأيام، لكن هذه الممارسة قد تراجعت بفعل المخاطر التي تكتنفها زيارة المدينة. وبينما قدِم الناس فعلًا للوقوف إلى جانب والد سعيد وسعيد، إلا أن أغلبهم جاء في زيارة خاطفة ولم يسعه المكوث طويلًا. ولم تكن تلك مناسبة يمكن خلالها طرح أي سؤال حول طبيعة العلاقة التي تربط ناديا تحديدًا بزوج الفقيدة أو بابنها، لذا لم يسأل أحد عن ذلك، لكن البعض تساءل عبر النظرات، فتبعت أعينهم ناديا في تنقّلها في الشقة بفستانها الأسود، تقدّم الشاي والبسكويت والمياه، ولا

تصلّي، ولا تتظاهر بالصلاة، كما لو أنها منهمكة بتلبية احتياجات الناس الدنيوية على أن تؤدي فروضها لاحقًا.

أما سعيد فقد أكثر من الصلاة، وكذلك والده، وكذلك ضيوفهم، وبعضهم انتحب. لكن سعيد بكى مرة واحدة، عندما رأى جثمان أمّه فصرخ. ولم يبكِ والد سعيد إلا عندما جلس وحيدًا في غرفته، بكى بصمت، من دون دموع، كما لو أن جسمه قد أصابه نوع من التلعثم أو الرعشة التي لا تفارقه، فإحساسه بالخسارة لا حدود له، وإحساسه بخير الكون قد اهتزّ، فزوجته كانت صديقته المفضّلة.

كانت ناديا تنادي والد سعيد بـ«والدي» وهو يناديها بـ«ابنتي». بدأ ذلك عندما التقيا للمرّة الأولى، حيث بدت اللفظتان مناسبتين لها وله، كونها أشكالًا مقبولة من التبادل الكلامي اللائق بين الشابة والعجوز، حتى في غياب أي صلة قرابة، وفي كلّ الأحوال، كانت ناديا قد شعرت أن والد سعيد هو والدها ما إن ألقت النظرة الأولى عليه، إذ كان غاية في الرقة، استحضر فيها رعاية حاضنة، تلك الرعاية التي يغدقها المرء على طفله أو حيوانه الأليف، أو على طيف ذكرى جميلة يدرك أنها بدأت تتلاشى.

نامت ناديا في ما كان غرفة سعيد سابقًا، على كومة من السجاد والملاءات على الأرض، بعد أن رفضت عرض والد سعيد إعطائها سريره، ونام سعيد على كومة مماثلة إنما أقل سماكة في غرفة المعيشة، ونام والد سعيد بمفرده في غرفة نومه، في الغرفة

التي نام فيها معظم أيام حياته. لكنه لا يسعه أن يتذكّر متى كانت المرة الأخيرة التي نام فيها بمفرده ولهذا السبب لم تعد غرفة مألوفة بالنسبة إليه.

أخذ والد سعيد يصادف كلّ يوم أغراضًا تعود إلى زوجته فيشط بوعيه عمّا يعرّفه آخرون بالحاضر، صورة أو أقراط أو مشلح معيّن ارتدته في مناسبة معيّنة. في المقابل، صادفت ناديا كل يوم أغراض حملتها إلى ماضي سعيد، من كتاب إلى مجموعة موسيقيّة أو ملصق داخل دُرج، مما أيقظ مشاعر من طفولتها، وأثار أفكارًا دفينة حول مصير أهلها وشقيقتها. من جهته، كان سعيد يحتلّ غرفة لم يشغلها مسبقًا إلا لفترة قصيرة، قبل سنوات، عندما زارهم أقرباء من بعيد أو من الخارج، فأعاده استقراره هنا مجدّدًا بالذاكرة إلى ماضٍ أفضل. وهكذا، تداخل هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين يتشاركون شقة واحدة وتقاطعوا مع بعضهم البعض عبر جداول متفرّقة ومتعدّدة من الزمن.

سقط حي سعيد في أيدي المقاتلين، فتراجعت حدّة الاقتتال الخفيف المجاور، لكن القذائف الكبرى واصلت تساقطها من السماء متفجرّة بقوة مذهلة تذكّر بغضب الطبيعة نفسها. شعر سعيد بالامتنان لوجود ناديا، وللطريقة التي بدّلت فيها لحظات الصمت التي خيّمت على الشقة، من غير أن تملأها بالضرورة بالكلام، بل تجعلها أقل كآبة في صمتها. كما شعر بالامتنان للتأثير الذي تتركه على والده إذ تنتشله كياسته، عندما يتذكّر أنه

في حضرة امرأة شابة، من لحظات حلم لا تنتهي، فيعيد انتباهه للحظة إلى ما يدور حوله. كم تمنى سعيد لو التقت ناديا بوالدته، ولو التقت والدته بناديا.

أحيانًا، عندما يخلد والد سعيد للنوم، كان سعيد وناديا يجلسان معًا في غرفة الجلوس، وأطرافهما تتلامس بحثًا عن رابط ودفء، وقد يمسكان بيدي بعضهما البعض، أو يتبادلان قبلة على الخد كحدّ أقصى في إشارة وداع قبل الخلود للنوم. غالبًا ما كانا يجلسان في صمت، أو يتكلّمان همسًا عن الفرار من المدينة، أو عن الشائعات التي تبدأ ولا تنتهي حول الأبواب، أو عن لا شيء: لون الثلاجة على سبيل المثال، أو حال فرشاة أسنان سعيد البائسة، أو شخير ناديا عندما أصيبت بزكام.

في إحدى الأمسيات، كانا يجلسان معًا على هذا النحو تحت غطاء، وكان نور خافت يتلألأ من قنديل الزيت، في غياب تام للتيار الكهربائي في الجزء الذي يسكنونه من المدينة، وانقطاع إمدادات الغاز أو المياه عبر الأنابيب، بعد تعطّل الخدمات البلديّة كلّها.

قال سعيد: «لقد بات أمرًا طبيعيًا أن تكوني هنا».

فأجابت ناديا ورأسها يرتاح على كتفه: «إنه كذلك بالنسبة لي أيضًا».

«قد تبدو نهاية العالم حميمة أحيانًا».

وضحكت. «نعم، كما الكهف،» وأضافت لاحقًا، «رائحتك تشبه قليلًا رائحة رجل الكهف».

«وأنت رائحتك تشبه رائحة نار تأكل الخشب».

نظرت إليه وشعرت بجسدها يتقلّص، لكنّها قاومت رغبة بعناقه.

عندما سمعا أن حيّ ناديا قد سقط أيضًا في أيدي المقاتلين، وأن الشوارع بين الحيّين باتت آمنة، ذهبا إلى شقّتها كي تجمع بعضًا من أغراضها. ووجدا أن مبنى ناديا قد تعرض للضرر، إذ سقطت أجزاء من الجدار الذي يواجه الشارع. كما نُهب محل البطاريات في الطابق الأرضي، لكن الباب الحديدي الذي يقود إلى الدرج لم يُخلع، وبدت البناية بشكل عام سليمة - لا شك في أنها تحتاج إلى الإصلاح، لكنها ليست على وشك السقوط.

كانت أكياس القمامة البلاستيكية التي تغطي نوافذ ناديا لا تزال في مكانها، باستثناء واحدة، اقتُلعت بسبب تحطم النافذة نفسها، فبات بالإمكان رؤية شقّ من السماء الزرقاء في المكان الذي كانت تشغله نافذة سابقًا، سماء صافية جميلة على غير عادتها، باستثناء عامود دخان رفيع يتصاعد في البعيد. أخذت ناديا المسجّلة والتسجيلات والملابس والطعام، بالإضافة إلى شجرة الليمون العطشى التي يمكن إحياؤها، وبعض المال والليرات الذهبية، التي تركتها مخبأة في الحوض، مدفونة تحت تربة الشجرة. قامت هي وسعيد بتحميل هذه الأغراض في المقعد الخلفي لسيارة عائلته، وخرج رأس شجرة الليمون من زجاج السيارة. لم تخرِج كل المال والليرات من الحوض مخافة

أن يقوم المسلحون على الحاجز بتفتيشهما، وهذا ما حصل، لكن المسلحين بدو متعَبين منهَكين فقبلوا بالمعلّبات مقابل تسهيل أمر مرورهما.

وعندما وصلا إلى المنزل، رأى والد سعيد شجرة الليمون فابتسم في ما بدا للمرة الأولى منذ أيام. وضعوها ثلاثتهم على الشرفة، بعجلة من أمرهم، إذ تجمّعت في الشارع فرقة من الرجال المسلحين الذين بدوا أغرابًا، وراحوا يتجادلون بلغة لم يتمكّنوا من فهمها.

خبأت ناديا المسجلة والتسجيلات في غرفة سعيد، حتى بعد انتهاء فترة الحداد المعتادة على والدة سعيد. لأن المسلّحين منعوا الموسيقى، ويمكنهم تفتيش شقّتهم من دون سابق إنذار، وقد حصل ذلك مرّة، عندما طرق المسلّحون الباب في منتصف الليل. وعلى كلّ حال، حتى لو أرادت أن تستمع إلى إحدى التسجيلات، فإن الكهرباء تكاد تكون مقطوعة على نحو مستمر، ولا تكفي حتى لشحن بطاريات الشقة الاحتياطية.

لحظة قدم المسلّحون، كانوا يبحثون عن أناس من مذهب معيّن، فطلبوا رؤية بطاقات الهويّة، والتحقّق من الأسماء، ولحسن حظ والد سعيد وسعيد وناديا، ما كانت أسماؤهم لترتبط بما يبحث عنه المسلّحون. لكنّ الحظ لم يحالف الجيران في الأعلى: فأحكم الإمساك بالزوج ثم قُطع عنقه، ونقلت الزوجة والابنة بعيدًا.

ظل دم الجار المقتول ينزف عبر شقّ في الأرض، حتى شكّلت دماؤه بقعة في الزاوية العليا من غرفة المعيشة التي يشغلها سعيد. وأخيرًا صعد سعيد ونادیا اللذين سمعا صراخ العائلة، إلى الأعلى لإحضاره ودفنه ما إن تجرآ على ذلك، لكن الجثة اختفت، وعلى الأرجح نقلها الجلّادون، وجفّت الدماء إلى حد ما، مخلّفة مستنقعًا جافًا وسط الشقة، وأثرًا غير متساوٍ على السلالم.

مزيج من رهبة ورغبة كان يدفعه إليها كل مساء على الرغم من قراره السابق بعدم القيام بأي فعل يقلّل من احترام أهله، فكانا يتلامسان ويداعبان بعضهما البعض ويتذوّقان بعضهما البعض، ويتوقّفان قبل الجماع بقليل. وهو ما لم تعد تصرّ عليه بعد أن وجدا وسائل عدة لتفادي ذلك.

في الليلة التالية لقطع رأس الجار، أو لربما الليلة التي تلتها، دخل سعيد غرفة ناديا وتخلّيا عن عفّتهما هناك للمرة الأولى. فوالدته لم تعد على قيد الحياة. أما والده، فلم يبدُ معنيًّا بشؤون الغرام، فأكملا سرًّا. وواقع أن عشاقًا غير متزوجين مثلهم الآن قد تحولوا إلى مثال وعوقبوا بالموت قد خلق إلحاحًا وشجاعة مريعين على الاقتران قارب أحيانًا نوعًا غريبًا من النشوة.

بعد أن أحكم المقاتلون سيطرتهم على المدينة، مدمّرين آخر المعاقل الكبيرة للمقاومة، حلّ هدوء نسبي على المدينة، تخلّله أنشطة الطائرات الحربية التي أخذت تصبّ حممها من السماوات والطائرات من دون طيار التي غالبًا ما لا تكون مرئية،

إضافة إلى عمليات الإعدام العامة والخاصة التي بدأت تقع على نحو متواصل، فتتدلى الأجساد من أعمدة لمبات الشارع والإعلانات كشكل من أشكال الزينة في الأعياد. وحصلت عمليات الإعدام في موجات، فما إن يتم تطهير حيّ حتى يستطيع أن ينعم بفترة من الراحة، إلى أن يرتكب أحدهم مخالفة من أي نوع كان، لأن المخالفات، على الرغم من المزاعم التي غالبًا ما تفيد بعشوائيتها، إلا أنها تعاقَب كلّها بلا رحمة.

اعتاد والد سعيد كلّ يوم زيارة منزل قريب له كان بمثابة أخ أكبر لوالد سعيد ولأقربائه الأحياء، وهناك جلس مع الرجال الطاعنين في السن، والنساء الطاعنات في السن، يتناولون الشاي والقهوة ويتناقشون في الماضي، وكلّهم عرفوا والدة سعيد جيّداً فراحوا يخبرون القصص التي حضرت فيها بقوة. ومع أنّ والد سعيد كان يجلس معهم، ويستمع إلى القصص، لم يشعر بأن زوجته لا تزال على قيد الحياة، إذ إن ثقل وفاتها ما انفك يقع عليه مع كلّ صباح، لكنه شعر أنه يستطيع أن يكون ولو جزئيًا برفقتها.

صار والد سعيد يقضي بعض الوقت في مقبرتها كلّ مساء في طريق عودته إلى المنزل. وقد وقف مرّة يشاهد صبية يلعبون الكرة فشعر بالغبطة إذ أعادته تلك الصور إلى مهاراته الخاصة بهذه اللعبة عندما كان في سنّهم، ثم أدرك أنهم ليسوا صبية صغار، بل مراهقون، رجال شباب، ولم يكونوا يلعبون بالكرة بل برأس ماعز مقطوع، ثم راح يفكّر، كم هم برابرة. لكنّه وعى فجأة

واقع أن الرأس لم يكن رأس ماعز بل رأس آدمي، بشعر ولحية، فأراد أن يؤمن أنه مخطئ، وأن النور يخفت وعيناه تخدعانه. هذا ما قاله في قرارة نفسه بينما يحاول عدم النظر مجدّدًا، لكن تعبيرًا ظهر على وجوههم جعله قليل التشكيك بالحقيقة.

في غضون ذلك، كرسّ سعيد ونانديا نفسَيهمالإيجاد سبيل للخروج من المدينة. وإذ اعتُبرت الطرق البرّية كلها محفوفة بالمخاطر وغير جديرة بالمحاولة، ما كان منهما إلا السعي وراء احتمال يؤمّن لهما المرور عبر الأبواب، تلك الأبواب التي باتت أغلبية الناس تؤمن بها، لا سيما وأن أيّ محاولة لاستخدام واحدة منها أو إبقائها سرّية قد اعتبرت خاضعة لعقوبة الإعدام من قبل المقاتلين، جريًا على عادتهم. ولأن أولئك الذين يملكون أجهزة راديو بموجات قصيرة قد ادّعوا أن حتى الإذاعات الدولية المرموقة قد اعترفت بوجود هذه الأبواب، وأخذ قادة العالم يناقشونها كأزمة عالمية كبرى.

استجابة لنصيحة من صديق، خرج سعيد ونانديا سيرًا على الأقدام في لحظات الغسق الأولى. وارتديا ملابس تتماشى مع قوانين الملبس، فأرخى سعيد لحيته بما يتماشى مع قوانين اللحية وخبّأت ناديا شعرها بما يتماشى مع قوانين الشعر، وقد حاولا أن يمشيا على أطراف الشوارع، في الظل قدر الإمكان، ويبذلان جهدًا كي لا يراهما أحد بينما يبدو عليهما أنهما يحاولان ألّا يراهما أحد. مرّا أمام جثة تتدلى في الهواء ولم يشمّا رائحتها حتى أصبحا باتجاه الريح، فباتت الرائحة لا تحتمل.

بسبب الأجهزة الآلية الطائرة عاليًا في السماء المظلمة، المتخفيّة إنما القائمة أبدًا في عقول الناس هذه الأيام، أخذ سعيد يمشي منحنيًا قليلًا إلى الأمام، كما لو أنه يتقلّص لمجرّد التفكير بالصاروخ أو القذيفة التي قد تطلقها إحداها في أي لحظة. في المقابل، وسعيًا منها لعدم إظهار أي شعور بالذنب، مشت ناديا مستقيمة، حتى إذا ما تم إيقافهما والتحقّق من بطاقات هويّتهما وأشير إلى أن بطاقتها لا تذكر أنه زوجها، ستعطي انطباعًا أكثر مصداقية عندما تقود سائلها إلى المنزل وتقدّم له الورقة المزوّرة التي تشكّل شهادة الزواج.

الرجل الذي يبحثان عنه أطلق على نفسه اسم وكيل، مع أنه لم يبدُ واضحًا إن كان ذلك يعود إلى تخصّصه في السفر أو إلى عمله سرًا أو إلى أي سبب آخر، وقد اتفقوا على اللقاء في متاهة قاتمة في مركز تسوّق تم إحراقه حتى بات عبارة عن ركام بمخارج عدة وأماكن للاختباء كثيرة، فتمنى سعيد لو أنه أصر على ناديا ألّا تأتي وتمنت ناديا لو أنها أحضرت معها مشعلًا أو أقله سكينًا. وقفا، بالكاد يريان ما حولهما، وانتظرا بتوتّر متصاعد.

لم يسمعا الوكيل يقترب- أو لربما كان هنا طوال الوقت- وقد فاجأهما صوته وراءهما مباشرة. تكلّم الوكيل برقة، وشبه حلاوة، ليعيد همسه إلى البال همس شاعر أو مريض نفسيًا. ثم أمرهما أن يقفا ثابتين ولا يستديرا. طلب من ناديا أن تنزع الغطاء عن رأسها، وعندما سألت عن السبب، قال لها إن هذا ضروري وأمرها بذلك.

شعرت ناديا أنه ملاصق لها، كما لو أنه سيلمس عنقها، لكنّها لم تتمكن من سماع تنفّسه. ثم سمعا صوتًا خفيفًا على بعد مسافة منهما، فأدركت هي وسعيد أن الوكيل قد لا يكون بمفرده. سأله سعيد أين الباب وإلى أين يقود، فردّ الوكيل أن الأبواب موجودة أينما كان لكنّ إيجاد باب لم يكتشفه المقاتلون بعد، أو باب لم يخضع بعد للحراسة، هو السر، وقد يتطلب الأمر وقتًا. وطلب الوكيل أخذ المال، فأعطاه سعيد المال وهو غير متأكد ما إذا كان الأمر دفعة أولى على الحساب أو سرقة.

وبينما عادا أدراجهما مسرعين، نظر سعيد وناديا إلى مساء ذلك المساء، وأخذا يتأملان تلألؤ النجوم وسطوة القمر في غياب أي إنارة كهربائية وفي انخفاض التلوث نتيجة تراجع حركة السير وندرة الوقود، فتساءلا إلى أي وجهة قد يقودهما الباب الذي اشتريا بطاقة إليه، إلى مكان في أعالي الجبال أو إلى السهول أو إلى مكان بالقرب من شاطئ البحر، وصادفا رجلًا هزيلًا ممددًا في الشارع وقد وافته المنية مؤخرًا، إما من الجوع أو من المرض، إذ لم يبدُ مصابًا، وفي الشقة أخبرا والد سعيد الخبر العتيد المحتمل لكنه لزم الصمت على نحو غريب، ثم انتظرا أن يقول شيئًا، فقال في النهاية: «فلنأمل ذلك».

ومع مرور الأيام، وعندما لم يتلقَ سعيد وناديا أيّ خبر من الوكيل، راحا يتساءلان ما إذا كانا سيتلقّيان أي خبر منه مجدّدًا. غادرت عائلات أخرى في مكان آخر. إحداها -والدة ووالد وابنة وابن- خرجوا من الظلمات إلى باب خدمة داخلي.

وجدوا أنفسهم في عمق طابق شاسع ملؤه التماثيل، تحت سلسلة من الأبراج الزجاجية الذهبية التي تحتوي على شقق فاخرة أسماها مطوّرها العقاري مساكن شاطئ جميرا. أمكن رؤية أفراد العائلة عبر كاميرا مراقبة تومض أعينها تحت الضوء الاصطناعي العقيم بعد أن عبروا الشارع. لكلّ منهم قامة نحيلة مستقيمة وبشرة داكنة، ومع أن التسجيل يفتقد للصوت إلا أن وضوح الصورة جعل من الممكن قراءة شفاههم وتحديد لغة التاميل التي يتكلمونها.

بعد فترة وجيزة، التقطت كاميرا ثانية العائلة تعبر مدخلًا وتدفع بالقضبان الأفقية التي تسبق مجموعة ثقيلة من الأبواب المزدوجة المقاومة للحريق، وما إن فتحت هذه الأبواب حتى أغشت أشعة شمس صحراء دبي الساطعة لاقط الصورة فبدت الأشكال الأربعة أكثر نحولًا، بلا أي قيمة، تائهة في هالة من بياض، لكن في تلك اللحظة تحديدًا التقطتها ثلاث كاميرات مراقبة خارجية، فأظهرتها كائنات صغيرة تتعثر لتصل إلى رصيف عريض، كما في نزهة على شارع بخط واحد عبرته سيارتان فاخرتان ببابين، إحداها صفراء والثانية حمراء، ليتحوّل هدير محرّكاتها إلى صورة مرئية عبر عيني الفتاة والصبي المذهولين.

أمسك الأهل بيدي ولديهما وقد بدوا ضائعين إزاء الاتجاه الذي سيسلكونه. لربما قدموا من قرية ساحلية، وليس من مدينة، إذ انجذبوا تلقائيًا نحو البحر بعيدًا عن المباني، وأمكن

رؤيتهم من زوايا عدة يتبعون ممرًا محدّدًا في الرمال، والوالدين يتهامسان بين الفينة والأخرى، بينما ينظر الولدان إلى السياح الشاحبين المستلقين على مناشف وكراسٍ شبه عراة- يلبسون أقل بكثير مما يفترض أن يرتدي المرء في فصل الشتاء، مع أنه ما كان بإمكان الأطفال معرفة ذلك.

أخذت طائرة من دون طيار تحلّق على ارتفاع خمسين مترًا فوقهم، من غير أن يسمعوها نظرًا لهدوئها، فتنقل ما تصوّره إلى محطة رصد مركزية وإلى آليّتي أمن، إحداها سيارة سيدان والأخرى شاحنة صغيرة مزودة بقضبان على نوافذها، ومن الآليّة الثانية خرج رجلان يرتديان زيًّا رسميًّا وسارا بثبات دونما الإسراع المستهتر أو الذي يثير قلق السيّاح. سارا لحوالي دقيقة باتجاه يتقاطع مع مسار العائلة التي تتكلّم التاميل.

خلال تلك الدقيقة، كانت العائلة مرئيّة أيضًا عبر كاميرات الهواتف الجوالة التي تلتقط صورًا شخصيّة، فلم تبدو كتلة واحدة متماسكة بل أربعة أفراد متفرقين، كلّ يتصرف بطريقة مختلفة، فالوالدة لا تنفك تنظر مباشرة إلى عيني النساء اللواتي يعبرنها ثم تطأطئ رأسها فورًا، والوالد يربّت على جيبه وفي داخل حقيبة ظهره كمن يبحث عن دموع أو تسرّبات، والابنة تحدّق بهواة القفز الحر الذين يتدفقون نحو رصيف قريب فيرتفعون في اللحظة الأخيرة ويهبطون سريعًا، والابن يختبر الأرضية المطاطية المخصصة للهرولة تحت قدميه مع كل

خطوة، ثم انتهت الدقيقة وتم اعتراضهم واقتيادهم بعيدًا، وهم في ذهول من أمرهم، أو رهبة، إذا أمسكوا بأيدي بعضهم ولم يقاوموا أو يتشتّتوا أو يهربوا.

في المقابل، حظي سعيد ونادیا بدرجة من الانعزال عن المراقبة عن بعد عندما كانا في الداخل، وذلك بفضل غياب الكهرباء، لكن مع ذلك، يمكن أن يخضع منزلهما للتفتيش من قبل رجال مسلحّين من دون سابق إنذار، وبالطبع ما إن تطأ أقدامهما الخارج حتى تلتقطهما العدسات التي تحدق بالمدينة من السماء ومن الفضاء، وترافقهما أعين المسلّحين والمخبرين الذين قد يكونوا أي أحد، وكلّ أحد.

إحدى الوظائف الخاصة سابقًا، تلك التي بات على الجميع تأديتها في العلن، كانت قضاء الحاجة، إذ في غياب مياه الأنابيب، لم تعد المراحيض في مبنى سعيد ونادیا تعمل. فاضطر السكان إلى حفر خندقين عميقين في الفناء الخلفي الصغير، واحد للرجال وآخر للنساء، يفصلهما غطاء ثقيل معلّق بواسطة حبل غسيل، وهنا تعيّن على الجميع الجلوس قرفصاء لإراحة أنفسهم، تحت الغيوم، متجاهلين الرائحة الكريهة، مديرين وجوههم إلى الأرض بحيث تبقى هويّة الفاعل خاصة بينه وبين نفسه حتى ولو أمكن رؤية الفعل.

لم تستعد شجرة الليمون التي أحضرتها نادیا عافيتها، على الرغم من ريّها المتكرّر، فاستقرّت بلا حياة على شرفتهما، تتمسّك ببضع وريقات جافة.

وقد يبدو من المفاجئ أنه حتى في مثل هذه الظروف، لم يعمد كلّ من سعيد ونادیا إلى إيجاد سبيل لهما خارج ذلك بشكل مباشر. فسعيد أراد مغادرة المدينة بأي ثمن، ولطالما أراد ذلك، لكن في مخيّلته، كان يتصوّر أنه سيغادرها مؤقّتًا، على نحو متقطّع، وليس مرة واحدة نهائية، فهذا الرحيل المحتمل الذي يلوح في الأفق مختلف الاختلاف كله، إذ يشكّك في أنه سيعود، وقد أصابه تشتّت عائلته الكبرى ودائرة أصدقائه ومعارفه إلى الأبد بحزن عميق، يشابه حزن خسارة منزل، أو بالأحرى منزله.

لربما كانت نادیا تواقة أكثر للرحيل، فبطبيعتها تنتابها حماسة بالغة لدى إقدامها على أي شيء جديد أو أي تغيير. لكن المخاوف تسكنها هي أيضًا، وتتمحور حول استقلاليتها، والمخاوف من أن تؤدي مغادرتها البلاد هي وسعيد ووالد سعيد إلى الوقوع تحت رحمة أغراب، يعتاشون على الصدقات ويقبعون في الأقفاص كما الحشرات.

لطالما كانت نادیا، وستبقى، أكثر تصالحًا مع كافة المتغيرات التي تطرأ على حياتها من سعيد، الذي يتفوّق عنده دافع الحنين، ربما لأن طفولته كانت أكثر سحرًا، أو ربما لأن ذلك طبعه بكل بساطة. غير أن كليهما، أيًا تكن المخاوف، ما كان ليشكّ في أنه سيرحل لو أعطي الفرصة لذلك. لذا، عندما وصلت رسالة صغيرة من الوكيل، دُسّت تحت باب شقتهم صباح أحد الأيام تفيد تحديدًا أين يفترض بهم التواجد وفي أي ساعة عصر اليوم

التالي، لم يتوقّع أي منهما أن يقول والد سعيد: «عليكما الذهاب، أما أنا، فلن آتي معكما».

لكن سعيد وناديا قالا إن ذلك مستحيل، وأخذا يشرحان، مخافة أن يكون أساء الفهم، أن لا مشكلة في ذلك، وأنهما قد سددا الأتعاب للوكيل لثلاثة راحلين وسيغادرون كلّهم معًا، فاستمع إليهما والد سعيد من غير أن يتزحزح عن موقفه. وكرّر أنه عليهما الرحيل، وعليه البقاء. هدّد سعيد بأن يحمل والده على كتفيه لو اضطرّه الأمر. ولأنه لم يسبق له أن تكلّم بهذه النبرة مع والده، فقد أخذه والده جانبًا، إذ رأى الألم الذي يسبّبه لابنه. وعندما سأل سعيد والده لماذا يفعل ذلك، وما الذي يمكن أن يبقيه هنا، أجاب والد سعيد: «والدتك هنا».

فردّ سعيد قائلًا: «والدتي رحلت».

وأجاب والده: «ليس بالنسبة لي».

وهذا صحيح بشكل أو بآخر، إذ إن والدة سعيد لم ترحل بالنسبة لوالده، ليس كليًّا، ويصعب على والد سعيد أن يترك المكان الذي قضى فيه حياته معها، ويصعب عليه ألّا يزور قبرها كل يوم، ولا يرغب أن يتوقف عن القيام بذلك، إذ يفضّل بطريقة ما أن يعيش مع الماضي، الماضي الذي يقدّم إليه أكثر من أي حاضرٍ آخر.

لكنّ والد سعيد يفكّر بالمستقبل أيضًا، مع أنه لم يقل ذلك لسعيد خشية أن يغيّر ابنه رأيه لو هو قال له ذلك، وكان على يقين

مطلق أنه يتعين على ابنه أن يرحل، وما لم يقله هو أنه قد بلغ تلك المرحلة من حياة الأهل، المرحلة التي يعي فيها الوالد أنه لحظة يقع الطوفان عليه أن يتخلى عن طفله، خلافًا لكل الغرائز التي تقود الإنسان عندما يكون أصغر سنًا، إذ إن التمسّك لم يعد يفيد أو يحمي الطفل، بل جلّ ما يفعله هو جرّ الطفل إلى الأسفل، وتهديده بالغرق، لأن الطفل قد أصبح الآن أقوى من أهله، والظروف تتطلّب أكبر قدر من القوة، ولا يتطابق قوس حياة الطفل مع أهله إلا في حالات قليلة، فالواقع يفرض أن يستقرّ قوس على الآخر، طبقة فوق طبقة، وانحناءة فوق انحناءة، لذا لا بد لقوس والد سعيد من أن يلتوي أكثر الآن، ليبقى قوس ابنه أعلى، إذ لو أعاق رجل عجوز تحرّك هذين الشابين، فستتراجع فرص نجاتهما.

قال والد سعيد لابنه إنه يحبّه، وأضاف أن على سعيد ألّا يعارضه في ذلك، وأنه لم يكن ليتخيّل نفسه يأمر ابنه أمرًا يومًا ما، لكنّه مضطر لأن يقوم بذلك في تلك اللحظة، وأن وحده الموت ينتظر سعيد ونياديا في هذه المدينة، وأن يومًا ما عندما تتحسّن الأمور يمكن لسعيد أن يعود إليه. وقد أدرك الرجلان عندما تفوّه بذلك، أن الأمر لن يحصل، وأن سعيد لن يتمكن من العودة بينما لا يزال والده على قيد الحياة. وفي الواقع تبيّن أن سعيد، بعد تلك الليلة التي شكّلت البداية، لن يقضي أي ليلة أخرى مع والده مجدّدًا.

ثم استدعى والد سعيد نياديا إلى غرفته وتكلّم معها من دون سعيد وقال إنه يأتمنها على حياة ابنه وأنها عليها، هي التي

يدعوها ابنتي، ألّا تخذله، هو الذي تدعوه والدي، وأنها عليها أن تقود سعيد إلى برّ الأمان، وتمنى أن تتزوج في يوم من الأيام ابنه فيناديها أحفاده والدتي، لكن هذا يعود إليهما ليقررا بشأنه، وجلّ ما يطلبه هو أن تبقى إلى جانب سعيد حتى يصبح خارج دائرة الخطر، وطلب منها أن تعده بذلك،. فقالت إنها على استعداد لبذل كل شيء إن هو جاء معهما، فكرّر مجددًا أنه لا يستطيع القيام بذلك، لكن عليهما الرحيل، قالها برقة كما الصلاة، فجلست بالقرب منه بصمت والدقائق تمر، وفي النهاية وعدته، وكان وعدًا سهلًا تقطعه على نفسها لأنها في تلك اللحظة لم تكن لتفكّر في التخلي عن سعيد، لكنه وعد صعب أيضًا لأنها ما إن قطعته حتى أدركت أنها تتخلى عن الرجل العجوز، وحتى لو كان محاطًا بأقربائه وأنسبائه، وقد يذهب للعيش معهم أو يأتون للعيش معه، فهم لن يستطيعوا حمايته كما يمكن لسعيد وناديا أن يفعلا، وبقطعها لذلك الوعد الذي طلب منها أن تقطعه كانت تقوم بطريقة ما بقتله، لكن هكذا تجري الأمور، إذ عندما نهاجر، نغتال من حيواتنا أولئك الذين نتركهم وراءنا.

الفصل السادس

ناما قليلًا تلك الليلة، الليلة التي سبقت رحيلهما عن المدينة، وفي الصباح عانقهما والد سعيد وودّعهما وخرج من المنزل بعينين دامعتين، من دون أن يتلعثم، إذ ارتأى الرجل العجوز أنه من الأفضل أن يغادر قبل الشابّين بدل أن يتألّما لحظة اجتيازهما عتبة الباب وهو ينظر إليهما من الخلف. لم يقل أين سيقضي يومه، فوجد سعيد ونياديا نفسيهما وحيدين، عاجزين عن اللحاق به في تلك اللحظة وهو يغادر، وفي السكون الذي تركه غيابه راحت نياديا تتحقّق وتتحقّق من حقيبتي الظهر الصغيرتين اللتين سيأخذانها، صغيرتين لأنهما لم يريدا إثارة أي شكوك، فامتلأت كل واحدة حدّ الانفجار، كسلحفاة مسجونة في صدفة تصغرها حجمًا. أما سعيد، فأخذ يمرّر أنامله على أثاث الشقة وعلى جهاز التلسكوب والزجاجة التي تحتوي على السفينة، ثم طوى بعناية صورة لأهله وخبّأها داخل ملابسه، إلى جانب شريحة ذاكرة تحتوي على ألبوم صور عائلته، وصلّى مرّتين.

كانت الرحلة إلى نقطة اللقاء رحلة لا تنتهي، ولم يمسك

أي من سعيد أونانديا أيديهما بينما يمشيان، إذ في ذلك مخالفة للقوانين بين الجنسين في الأماكن العامّة، حتى بين ثنائي متزوّج ظاهريًّا، لكن بين الفينة والأخرى تتلامس مفاصلهما عند جانبيهما، فيرتدي ذلك الاتصال العرضيّ بينهما أهمّية بالغة. فهما على دراية باحتمال أن يكون الوكيل قد باعهما للمسلّحين، لذا كانا على علم أن ثمة احتمال أن يكون هذا العصر هو آخر عصر في حياتَيْهما. كانت نقطة اللقاء في منزل بجانب سوق ذكّر ناديا ببيتها السابق. في الطابق الأرضي منه عيادة طبيب أسنان افتقدت منذ دهر للأدوية والمسكّنات، وبدءًا من البارحة افتقدت لطبيب أسنان أيضًا، وفي غرفة انتظار طبيب الأسنان أصيبت بصدمة لأن رجلًا يبدو وكأنّه مقاتل وقف هناك، وبندقيّته تترنّح على كتفه. لكنّه ما إن أخذ منهما باقي الحساب حتى طلب إليهما أن يجلسا، فجلسا في الغرفة المكتظّة مع ثنائي مرتعب وطفليه بعمر المدرسة، وشابّ يرتدي نظارات، وامرأة أكبر سنًّا تجلس مستقيمة على مقعدها كما لو أنها مصنوعة من ذهب، مع أن ثيابها متّسخة. وكلّما مرّت دقائق قليلة استدعي أحدهم إلى عيادة طبيب الأسنان، وبعد أن استُدعيت ناديا مع سعيد، وجدا نفسيهما بحضرة رجل نحيل يبدو هو الآخر مقاتلًا أخذ يحكّ طرف أنفه بظفره، كما لو أنه يقشط ندبة عليه، أو ينقر على آلة موسيقيّة، وعندما تكلّم سمعا صوته الرقيق الغريب فأدركا على الفور أنه الوكيل اللذي التقياه في وقت سابق.

بدت الغرفة قاتمة وكرسي طبيب الأسنان وأدواته كما لو أنها مكان تعذيب. وأشار الوكيل برأسه إلى سواد باب شكّل في ما مضى مدخلًا لخزانة مؤن وقال لسعيد: «تذهب أوّلًا،» لكن سعيد الذي خال حتى تلك اللحظة أنه سيكون الأول الذي يذهب للتأكّد من أن الوضع آمن وتستطيع ناديا اللحاق به، غيّر رأيه في تلك اللحظة، إذ اعتبر أن الأمر قد يكون أكثر خطورة بالنسبة إليها لو بقيت بينما يعبر هو، فقال، «كلا، هي أولًا».

هزّ الوكيل كتفيه كما لو أنّ الأمر غير مهم بالنسبة إليه. أما ناديا، التي حتى تلك اللحظة ما فكّرت في ترتيبات مغادرتهما، فقد أدركت أن ما من خيار أفضل لكليهما، وأن في كلّ من هذين الاحتمالين خطورة، إن ذهبت هي أولًا أم ثانيًا. فلم تجادل، بل اقتربت من الباب وسعيد يتبعها، وكلّما اقتربت صدمها ظلامه، والعتمة التي تكتنفه، والطريقة التي ما كان ليعكس بها ما يخبّئه في الجانب الآخر، فشعرت كما لو أنها البداية والنهاية، واستدارت نحو سعيد فوجدته يحدّق بها والقلق والأسى يتآكلان وجهه، فأمسكت بيديه وشدّت عليهما، ثم تركتهما وعبرت من دون أن تنبس بكلمة.

يقال في تلك الأيام إن العبور أشبه بالموت والولادة في وقتٍ واحد. وبالفعل، اختبرت ناديًا نوعًا من الانطفاء بينما تدخل الظلمة، واختبرت كفاحًا مبهرًا بينما تحاول الخروج منه، فشعرت بالبرد وقد أصابتها الكدمات وابتلّت كلّها بينما تستلقي

على الأرض في غرفة على الجانب الآخر، ترتجف وقد خارت قواها فلم تعد تقوى على النهوض، فأخذت تفكّر بينما تجهد لملء رئتيها أن ذلك البلل لا بد من أنه تعرّقها.

وبرز سعيد فزحفت ناديا إلى الأمام كي تفسح المجال له، وبينما قامت بذلك لاحظت المجلى والمرايا للمرة الأولى، والبلاط على الأرض والأكشاك وراءها.كانت الأبواب كلّها، باستثناء بابٍ واحد، أبواب طبيعية، كلّها ما خلا الباب الذي خرجت منه، والذي يخرج منه سعيد حاليًّا، وهو باب أسود، فأدركت أنهما في حمّام في مكان عام، وأخذت تنصت بتركيز لكن الصمت كان مخيّمًا، والأصوات الوحيدة المنبعثة هي أصوات نَفَسها ونَفَس سعيد. لهاثه الهادئ كما لو أنه رجل يتمرّن أو يمارس الجنس.

تعانقا من غير أن يقفا على قدميهما، وربّتت على كتفيه، إذ كان لا يزال وهِنًا، وعندما استعادا قوّتهما وقفا. ورأت سعيد يستدير نحو الباب، وكأنه يتمنى لو يعكس مجرى الأمور ويعود من حيث أتى، فوقفت بالقرب منه من غير أن تتكلّم. وقفا بلا حركة لوهلة، قبل أن يخطوا إلى الأمام ويعبرا إلى الخارج فيجدا نفسيهما بين مبنيين منخفضين، ويتناهى إلى مسامعهما صوت أشبه بصدفة موضوعة على أذنهيما، فيشعران بلفحة باردة تعصف بوجهيهما ويشمان رائحة مياه البحر في الهواء فينظران ويشاهدان امتدادًا رمليًا وأمواج رمادية صغيرة تتخبّط، فبدا الأمر كمعجزة، مع أنه لم يكن بالمعجزة، فهما على الشاطئ ليس إلا.

عند واجهة الشاطئ منتجع سياحي فيه حانات وطاولات ومكبّرات صوت ضخمة وكراس مكدّسة في فصل الشتاء. إشاراته مكتوبة باللغة الإنجليزية وبلغة أوربية أخرى. بدا مهجورًا، فذهب سعيد ونادیا ووقفا أمام البحر، والمياه تتوقّف على بعد خطوات من أقدامهما قبل أن تتلاشى في الرمال، مخلّفة أثلامًا في النعومة التي تحت أقدامهما كما فقاعات الصابون المنتهية الصلاحية، تلك التي ينفخ بها والد لابنه. وبعد برهة من الزمن، خرج رجل شاحب البشرة شعره بنّي فاتح وطلب منهما أن يبتعدا، مشيحًا بيديه بإيماءات، لكن من دون أي عدائية أو قساوة معيّنة، بل كما لو أنه يتحدّث بلغة إشارات متعارف عليها دوليًا.

ابتعدا عن المنتجع السياحي ومن على إحدى التلال شاهدا ما يبدو مخيمًا للاجئين، يحتوي على مئات الخيم والأكواخ وأناس من شتى الألوان والسحنات- العديد من الألوان والسحنات التي تتراوح في غالبيتها بين البنّي والبنّي الداكن إلى الفاتح- وهؤلاء قد تجمّعوا حول نار تشتعل داخل براميل نفط، يتكلّمون في تنافر أصوات يجسّد لغات العالم، أشبه بما قد يسمعه الفرد لو عمل في قمر اصطناعي للاتصالات، أو كان جاسوسًا يتنصّت على كابل ألياف بصرية يمرّ عبر البحار.

في تلك المجموعة، الكلّ غريب، وبالتالي، ما من أحد غريب، بشكل أو بآخر. سرعان ما حدّدت نادیا وسعيد مجموعة

من مواطناتها ومواطنيها من سكان الأرياف، فعلما منهم أنهما على جزيرة ميكونوس اليونانية، وهي جزيرة تجتذب السياح صيفًا، ويبدو أنها تجتذب اللاجئين شتاء، وأن الأبواب للخارج، أي الأبواب نحو وجهات أكثر ثراءً، تقع تحت حراسة مشدّدة، أما الأبواب للداخل، الأبواب نحووجهات أكثر فقرًا، فقد تُركت بلا أي مراقبة تقريبًا، لربّما أملًا منهم في أن يعود الذين أتوا من حيث أتوا- على الرغم من أنّ أحداً لم يقم بذلك- أو لربما لكثرة عدد الأبواب نحو هذه الأماكن وكثرة الأماكن الفقيرة مما يصعّب عملية حراستها كلّها.

كان المخيّم أشبه بمركز تجارة يشهد أيامه الذهبية، إذ كل ما فيه للبيع أو المقايضة، من البلوزات إلى الهواتف الخلوية إلى المضادات الحيوية، والجنس والمخدرات، إنما بوتيرة هادئة بعض الشيء. إذ توجد عائلات عينها على المستقبل، وهناك عصابة شبّان صغار عينهم على الضعفاء والنزهاء، وأولئك الذين خاطروا بحياتهم لإنقاذ أطفالهم، وهناك من أتقنوا خنق رجل في الظلام من غير أن يصدر أي صوت. قيل لهم إن الجزيرة آمنة بشكل عام، ما خلا بعض الاستثناءات، شأنها شأن غيرها من الأماكن. فالأشخاص المسالمون يتخطّون بأعدادهم الأشخاص الخطيرين، لكن قد يكون من الأفضل أن يبقى الفرد في المخيّم بالقرب من آخرين عند حلول الليل.

أول ما اشتراه سعيد وناديا، وناديا هي التي توّلت المفاوضات،

كان بعض المياه والطعام وغطاء وحقيبة ظهر أكبر، وخيمة صغيرة تحوّلت عند ثنيها إلى كيس خفيف سهل الحمل، وشريحتين محلّيتين لهاتفيهما. ثم اختارا رقعة أرض عند طرف المخيم، باتجاه التلّة، لم تكن عرضة للرياح ولا صخريّة، وشيّدا عليها منزلهما المؤقت، فشعرت ناديا خلال قيامها بتلك المهمة وكأنها تلعب بيت بيوت، كما لو كانت لا تزال فتاة صغيرة تلعب مع أختها، بينما شعر سعيد خلال تأديته مهمته أنه ابن عاق. وعندما جلست ناديا القرفصاء بجانب شجيرة هزيلة وشدّته ليجلس مثلها القرفصاء، وحاولت هناك في مخبئهما أن تقبّله تحت أعين السماء، أشاح وجهه عنها بغضب، ثم عاد واعتذر على الفور، ووضع خدّه على خدّها، فحاولت أن تريحه، وخدّها يلامس خدّه الملتحي. لكنها تفاجأت، لأن ما بدا لها في ملامحه تلك اللحظة هو المرارة، وهي لم يسبق لها أن رأت هذه المرارة على وجهه من قبل، ليس في هذه الأشهر الماضية كلّها، ليس حتى هذه اللحظة، ولا حتى عندما توفّيت والدته.لقد كان محزونًا، نعم، يائسًا، إنما لم يكن يومًا يُظهِر المرارة، ليس كما لو أن شيئًا ما يتآكل أحشاءه. ولطالما أدهشها أن ترى فيه عكس المرارة، فهو سريع التبسّم.اطمأنت الآن عندما حمل يدها وقبّلها، كما لو كان يصلح ما بدر منه، لكنّها ارتبكت قليلًا أيضًا، إذ آلمها أن يكون سعيد المرير بعيدًا كل البعد عن سعيد الذي عرفته.

أخذا قيلولتهما في الخيمة، مرهقَيْن. وعندما استيقظا، حاول

سعيد أن يتّصل بوالده لكن رسالة مسجّلة أفادته أن الاتّصال غير ممكن، وحاولت ناديا أن تتواصل مع آخرين عبر تطبيقات التحادث ووسائل التواصل الاجتماعي، بالإضافة إلى أحد معارفها الذي تمكّن من الوصول إلى أوكلاند، وآخر بلغ مدريد وردّ عليها مباشرة.

جلست ناديا وسعيد بالقرب من بعضهما البعض على الأرض يحاولان الاستماع إلى الأخبار، والاضطرابات في العالم، وحال بلادهما، ومختلف الطرقات والوجهات التي يأخذها المهاجرون ويوصون بها بعضهم بعضًا، والحيل التي يمكن لهم توظيفها والمخاطر التي يفترض بهم تفاديها بأي شكل من الأشكال.

وفي وقت متأخر من بعد الظهر، توجّه سعيد إلى أعلى التلة، وتوجّهت ناديا إلى أعلى التلة، ثم سرّحا ناظريهما في الجزيرة، وفي البحر، ووقف سعيد بالقرب من المكان الذي وقفت فيه، ووقفت بالقرب من المكان الذي وقف فيه، وراح الهواء يتلاعب بشعرَيهما، ونظرا من حولهما وإلى بعضهما البعض، من غير أن يريا بعضهما البعض، إذ ذهبت إلى الأعلى قبله، وذهب إلى الأعلى بعدها، ولم يمكث كلاهما عند أعلى القمة سوى لحظات، في أوقات مختلفة.

وبينما نزل سعيد من التلّة، إلى حيث تجلس ناديا في الخيمة، كانت صبيّة شابّة تهمّ بمغادرة معرض للفن المعاصر حيث تعمل في فيينا. لقد عبر مسلّحون من بلاد سعيد وناديا الأسبوع الماضي

إلى فيينا، فشهدت المدينة مجازر في الشوارع، إذ قام المسلحون بإطلاق النار على سكان عزّل قبل أن يختفوا، مخلفين وراءهم مذبحة لم تشهد لها فيينا مثيلًا من قبل، في الواقع لم تشهد لها مثيل منذ الاقتتال في القرن الماضي، وفي القرون التي سبقت، وكانت ذات أبعاد وأحجام مختلفة، إذ عبر التاريخ لم تكن فيينا غريبة عن الحرب، ولربما أمل المسلّحون أن يثيروا ردة فعل ضد المهاجرين من الجزء الذي ينتمون إليه في العالم، أولئك الذين تدفقوا إلى فيينا، ولو كان ذلك أملهم فقد نجحوا بذلك، إذ علمت الصبية الشابّة بذلك من أحد الغوغائيين الذين كانوا ينوون مهاجمة المهاجرين المتجمّعين بالقرب من حديقة الحيوانات، فأخذ الجميع يتكلّم عن الأمر ويراسلون بعضهم بعضًا، فقررت أن تلتحق بسلسلة بشرية للفصل بين الجانبين، أو لحماية المهاجرين من المعادين للمهاجرين، وكانت ترتدي شارة سلام على معطفها، وشارة فخر بألوان قوس القزح، وشارة تعاطف مع المهاجرين، الباب الأسود داخل قلب أحمر، وبوسعها أن ترى بينما تنتظر الصعود إلى قطارها أن الجموع في المحطة ليست جموعًا اعتيادية، وأن الأطفال والكبار في السن يبدون غائبين، وأن عدد من النساء أقل من المعتاد، وبما أن الاضطرابات العتيدة باتت معروفة، يبدو أن السكان يحاولون البقاء بعيدًا، لكن ما إن صعدت في القطار حتى وجدت نفسها محاطة برجال يبدون كأخيها أو أقربائها أو والدها أو أعمامها، إلا أنهم رجال غاضبون، مغتاظون، شرعوا يحدّقون بها وبشاراتها بعدائية لم

يكترثوا لإظهارها ولم يهتموا لإخفائها، بل ينظرون إليها بضغينة الخيانة الجليّة، ثم بدأوا يصرخون بوجهها ويدفعونها، فشعرت بالخوف، خوف بدائي حيواني، رعب، وفكرّت أنه قد يحصل أي شيء، ثم جاءت المحطة التالية فسعت إلى المخرج ونزلت من القطار، وخشيت أن يلحقوا بها ويوقفوها، ويؤذوها، لكنهم لم يفعلوا.نجحت في الهرب، ووقفت هناك بعد أن أكمل القطار سيره، وكانت ترتجف، ثم فكّرت للحظة واستجمعت شجاعتها، وبدأت بالسير، ليس باتجاه شقتها، شقتها الجميلة المطلة على النهر، لكن في الاتجاه الآخر، اتجاه حديقة الحيوانات، حيث كانت تنوي الذهاب منذ البداية، وستذهب الآن، وقد جرى هذا كلّه بينما تطأطئ الشمس رأسها في السماء، تمامًا كما تفعل في ميكونوس، مع أنها إلى جنوب شرق فيينا، ليست بالبعيدة بالمعنى الكوني للكلمة، وهناك في ميكونوس جلس سعيد ونانديا يقرآن عن الاضطرابات التي بدأت في فيينا، ويتابعان ما شرع مواطنون لهما مذعورون يناقشونه عبر شبكة الانترنت بحثًا عن أفضل السبل للتحمل أو الفرار.

في الليل يشتدّ البرد، لذا نام سعيد ونانديا بكامل ملابسهما، من غير أن ينزعا سترتيهما، بل عانقا بعضهما بعضًا وهما متدثّرين تحت غطائهما الذي أحاطهما من كل جانب، مانحًا إياهما نوعًا من الراحة مقابل الأرض الصلبة غير المستوية. كانت خيمتهما صغيرة بما لا يسمح لهما بالوقوف، مجسّم خماسي طويل إنما

منخفض، على شكل المنشور الزجاجي الثلاثي الذي كان سعيد يملكه وهو صغير، والذي يعكس عبره ضوء الشمس إلى أقواس قزح صغيرة. تمسّك ونادیا ببعضهما البعض واحتضنا بعضهما البعض في البداية، لكن الاحتضان لم يعد مريحًا بعد فترة، نظرًا لضيق المكان، فشرعا ينامان متلاصقين، تستند بظهرها عليه فيضغط عليها من الخلف، ثم بينما مرّ القمر خاطفًا بنوره في الأعالي، استدار واستدارت وضغطت عليه.t.me/ktabpdf

عندما استقيظ في الصباح، وجدها تنظر إليه فداعب شعرها ومسّدت على شعره ووراء أذنه بإصبعها، ثم قبّلها فتحسّنت الأمور بينهما. وضّبا أمتعتهما وحمل سعيد حقيبة الظهر الكبيرة بينما حملت ناديا الخيمة وقايضا إحدى حقائبهما الصغيرة بحصيرة يوغا أملًا منهما أن تجعل نومهما أكثر راحة.

ومن دون سابق إنذار بدأ الجموع يتهافتون خارج المخيّم فسمع سعيد ونادیا شائعة مفادها أن ثمة باب جديد قد اكتُشف، باب إلى ألمانيا، فركضا أيضًا، في البداية وسط الحشد، لكنّهما تقدّما بسرعة حتى أصبحا أقرب إلى الجبهة. وملأ الحشد الطريق الضيقة ليفيض على الجوانب ويمتدّ على بعد مئات الأمتار طولًا، فتساءل سعيد أين يذهبون، ثم رأى في الأمام أنهم يقتربون من فندق أو من منتجع سياحي. وبينما اقتربوا لمح خطًا من رجال ببدلات رسمية يقف سدًّا أمامهم، فأخبر ناديا، وشعر كلاهما بالخوف، وبدآ يبطئان خطواتهما ويسمحان للجموع بالمرور

أمامهما، لأنهما شهدا من قبل في مدينتهما ماذا يحصل عندما يتم إطلاق النار على حشد من العزّل. لكن في النهاية، لم يحصل إطلاق نار، وجلّ ما فعله الرجال بالبدلات الرسمية هو إيقاف الحشد، إنما بعض الأرواح الشجاعة أو اليائسة أو المغامرة سعت للعبور، فركضت بسرعة عالية من الجهتين، حيث الفجوات، لكن ألقي القبض على عدد من الذين حاولوا العبور، وبعد ساعة أو نيّف توزّع الحشد وعادت غالبية الناس أدراجها إلى المخيّم.

ومرّت أيام كهذه، عنوانها الانتظار والآمال الكاذبة، أيام أوشكت أن تكون أيام ملل. هكذا كانت لكثيرين، لكن ناديا اقترحت أن يقوما باستكشاف الجزيرة كما لو كانا سائحَيْن. ضحك سعيد موافقًا، فكانت المرة الأولى التي يضحك فيها منذ وصلا، فأثلج منظره قلبها، وحملا أمتعتهما كمستكشفَيْن في الغابات وراحا يمشيان على طول الشواطئ والتلال وصولًا إلى أطراف المنحدرات، فقرّرا أن ميكونوس فعلًا مكان جميل، وأدركا ما الذي يحمل الناس على القدوم إلى هنا. أحيانًا، يصادفان مجموعة من الرجال الذين يبدون أشدّاء فيتخذ سعيد ونادیا حذرهما ويبقيان على مسافة منهم، وفي المساء، يحرصان على النوم في محيط أحد مخيمات المهاجرين الكبرى، وعددها كبير، ويمكن لأي كان أن ينضمّ إليها، فيلتحق بها أو يغادرها كيفما يشاء.

التقيا مرّة بأحد معارف سعيد وقد بدا ذلك شبه مستحيل

ومصادفة جميلة، كورقتين عصف بهما إعصار من على شجرة واحدة فحطّا بعيدًا بالقرب من بعضهما البعض، الأمر الذي أغبط سعيد. قال الرجل إنه يعمل في تهريب البشر، وقد ساعد كثيرين على الهروب من المدينة، ويقوم بالأمر نفسه هنا، لأنه يعرف جيدًا كافة المداخل والمخارج. ووافق على مساعدة سعيد ونادیا، وخفّض أجره إلى النصف لهما فأعربا عن امتنانهما له، فأخذ مبلغًا من المال قائلًا إنه سيوصلهما إلى السويد في الصباح التالي، لكن عندما استيقظا لم يجدا أي أثر للرجل. رحل. اختفى بين ليلة وضحاها. لكن سعيد لم يفقد ثقته به ومكثا حيث كانا لأسبوع، وبقيا في البقعة نفسها في المخيم نفسه، لكنهما لم يرياه مجدّدًا. أدركت ناديا أنهما تعرّضا للخديعة، فتلك الأمور شائعة، وأدرك سعيد ذلك أيضًا، لكنّه فضّل لبرهة من الزمن أن يحاول أن يصدّق أن أمرًا حدث للرجل حال دون عودته، وعندما كان سعيد يصلّي، راح يصلّي ليس لعودة الرجل وحسب بل لسلامته أيضًا، إلى أن بدا أمر مواصلة الصلاة لعودة الرجل غبيًّا، فبات سعيد يصلّي لناديا ولوالده ليس إلا، وتحديدًا لوالده الذي لم يكن معهما، مع أنه كان يُفترض به ذلك. لكن لا مجال للعودة إلى والده الآن، إذ ما من باب بقي خفيًا على المقاتلين في مدينتهم لفترة طويلة، وما من أحد عاد من باب بعد أن هرب من حكمهم سُمح له بالبقاء على قيد الحياة.

في صباح أحد الأيام، تمكّن سعيد من اقتراض أداة حلاقة

فحلق لحيته وقلّمها مخلّفًا قصبات كما عندما التقت ناديا به للمرة الأولى. وفي ذلك الصباح، سأل ناديا لماذا ما زالت ترتدي فساتينها السود، بما أنها ليست بحاجة إلى ذلك، فردّت أنها لم تكن بحاجة لارتدائها في مدينتها، عندما عاشت وحيدة، قبل دخول المسلّحين إليها، لكنها اختارت ذلك، لأنها كانت ترسل عبرها إشارة، وما زالت تودّ إرسال هذه الإشارة. فابتسم وسألها، إشارة حتى إليّ، فبادلته الابتسام وقالت، ليس إليك، إذ سبق ورأيتني عارية.

باتت أموالهما في شحّ، إذ صرفا أكثر من نصف المبلغ الذي غادرا به مدينتهما. وأصبحا أكثر إدراكًا لليأس الذي يريانه في المخيمات، والخوف في عيون الناس، خوف من أن يعلقوا هنا إلى الأبد، أو حتى يجبرهم الجوع على العودة من إحدى الأبواب التي تقود إلى أماكن غير مرغوب فيها، الأبواب التي تُركت بلا حراسة، والتي يشير إليها الناس في المخيمات على أنها مصيدة للفئران. غير أن البعض يحاول، استسلامًا منهم، لا سيما عندما يستنزفون مواردهم، فيغامرون بالعبور من خلالها إلى المكان نفسه الذي أتوا منه، أو إلى مكان آخر غير معروف. يحصل ذلك عندما يدركون حقيقة أن أي مكان آخر هو أفضل من الحالة التي هم فيها.

بدأ سعيد وناديا يحدّان من تجوالهما للمحافظة على طاقتهما، وتاليًا خفض حاجتهما للمأكل والمشرب. اشترى سعيد قصبة صيد بسيطة، كانت متوفّرة بسعر زهيد لأن بكرتها مكسورة ويجب

سحب خيطها يدويًا. توجه هو ونانديا نحو البحر، ووقفا على صخرة، ووضعا الخبز في الصنارة، وحاولا الصيد، بمفردهما. شخصان يقفان وحدهما، تحيط بهما المياه، والهواء يعصف عند التلال، مخبّئًا ما تحته، فجلسا يصطادان ويصطادان لساعات، كل واحد بدوره، لكنّ أيًا منهما لم يكن يعلم كيف يصطاد، أو لربما لم يحالفهما الحظ، ومع أنهما شعرا بقضم السمك للخبز إلا أنهما لم يصطادا أي سمكة، فكما لو أطعما خبزهما لمياه مالحة لا تشبع.

أخبرهما أحدهم أن أفضل أوقات الصيد عند الفجر والغسق، لذا بقيا بمفردهما أكثر مما يفترض بهما أن يبقيا. وبينما بدأ الليل يسدل ستاره، رأيا أربعة رجال عن بعد يقتربون من الشاطئ. قالت ناديا إنه عليهما الرحيل، ووافقها سعيد الرأي، فمشى الثنائي سريعًا، لكن بدا أن الرجال يتبعونهما، فحثّ سعيد ونانديا الخطوات، وأسرعا قدر الإمكان، مع أن ناديا انزلقت وجرحت ذراعها على الصخر. وبات الرجال أقرب إليهما، فتساءل سعيد ونانديا بصوت عال ما الذي يمكن أن يتخلّيا عنه من أغراضهما، لتخفيف الحمل، أو تقدمة منهما لمن يلحقون بهم. فقال سعيد إن الرجال لربما يريدون القصبة، وبدا لهما ذلك أكثر طمأنة من احتمال أن الرجال يريدون أمرًا آخر. فتخليا عن القصبة، لكن سرعان ما رأيا منزلًا بعد أن استدارا حول منحنى، وخارج المنزل حرّاس ببدلات رسمية، ما يعني أن المنزل يحتوي بابًا إلى مكان مرغوب فيه، ولم يسبق لسعيد ونانديا أن شعرا بالراحة لدى

رؤية حراس على الجزيرة كما الآن. اقتربا أكثر إلى أن صرخ بهما الحراس طالبين منهما أن يتراجعا، فتوقف سعيد ونادیا، موضحين أنهما لن يعمدا إلى الدخول إلى المنزل. جلسا حيث يستطيع الحراس رؤيتهما، وحيث يشعران بالأمان، وفكّر سعيد أن يعود ويسترجع القصبة، لكن ناديا اعتبرت الأمر بالغ الخطورة. وندما على تخليهما عنها. أخذا يترقبان لفترة لكن الرجال الأربعة لم يظهروا أبدًا، فنصبا خيمتهما في تلك البقعة، من غير أن يتمكّنا من الخلود إلى نوم يريحهما تلك الليلة.

تحوّلت الأيام أكثر دفئًا بينما طرق الربيع باب ميكونوس، وأخذت براعم الأزهار تتفتّح. لم يذهب سعيد ونادیا طوال أيام مكوثهما هنا إلى البلدة القديمة، إذ كانت محظورة على المهاجرين ليلًا، وقد امتنعا عن الذهاب إلى هناك حتى في ساعات النهار، باستثناء الذهاب إلى أطرافها حيث يمكنهما المقايضة مع السكان، أي أولئك الذين مضى على وجودهم في الجزيرة أكثر من بضعة أشهر، لكن الجرح على ذراع ناديا بدأ يلتهب، لذا توجّها إلى أطراف البلدة القديمة لمداواته في عيادة. هناك وجدا فتاة محليّة شبه حليقة الرأس، لم تكن لا طبيبة ولا ممرضة بل مجرّد متطوّعة، شابّة لطيفة لم تتخطَ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرها، قامت بتنظيف الجرح وتضميده. تصرفت برفق، فحملت ذراع ناديا كما لو أنها شيئًا ثمينًا، حملت ذراعها بنوع من الحياء. تبادلت المرأتان أطراف الحديث، فنشأ

رابط ما بينهما، وقالت الفتاة إنها تودّ مساعدة ناديا وسعيد وسألت ما الذي يحتاجانه. فأجابا أنهما يحتاجان إلى طريقة للخروج من الجزيرة قبل كل شيء، فردّت الفتاة أنه قد يمكنها القيام بأمر ما، وأنه يتعيّن عليهما البقاء في الجوار، وأخذت رقم ناديا، وشرعت ناديا تزور العيادة كل يوم وتتكلم مع الفتاة وتشربان القهوة أحيانًا أو تدخّنان سيجارة وبدت الفتاة سعيدة برؤيتها.

كانت البلدة القديمة ساحرة، بمبانيها البيضاء ونوافذها الزرقاء المتناثرة على طول التلال، والمنتشرة حتى حدود البحر، وأمكن سعيد وناديا رؤية طواحين صغيرة وكنائس مدوّرة من الضواحي، بالإضافة إلى أخضر الأشجار الذي بدا عن بعد أشبه بزهور اصطناعية. كان المكوث في الجوار مكلفًا إذ إن المخيّمات هنا تضم مهاجرين ميسورين، فبدأ القلق يساور سعيد.

لكن صديقة ناديا الجديدة أظهرت أنها صادقة في وعودها. ففي الصبيحة الباكرة لأحد الأيام، وضعت ناديا وسعيد على درّاجتها وأسرعت بهما عبر الشوارع الساكنة إلى منزل على تلة فيه فناء. دخلا إلى هناك ووجدا بابًا. عانقت الفتاة ناديا بقوة، وتمنت لهما حظًا طيبًا. وفوجئ سعيد عندما رأى الدموع في عيني الفتاة، وإن لم يكن دمعًا فأقله رقرقة دامعة، وعانقتها ناديا أيضًا، ودام ذلك العناق لفترة طويلة، فهمست لها الفتاة شيئًا في أذنها، همست، ثم استدارت ناديا وعبرت مع سعيد. عبرا عبر الباب تاركين ميكونوس وراءهما.

الفصل السابع

خرجا في غرفة نوم تطلّ على سماء مقمرة. أثاثها ثمين فاخر الصنعة حتى خيّل لسعيد وناديا أنّهما في فندق من تلك الفنادق التي يريانها في الأفلام والمجلات الصقيلة، تزيّنها أخشاب شاحبة اللون وسجادات عاجية وجدران بيض ومعادن برّاقة هنا وهناك، معادن تعكس الصورة كما المرآة، فتؤطّر تنجيدة أريكة، أو لوحة تبديل الأضواء. لم يتزحزحا من مكانَيهما، مخافة أن يتم اكتشافهما، لكن المكان هادئ هدوءًا حملهما على الاعتقاد أنهما في الريف -إذ لا خبرة لديهما في الزجاج العازل للصوت- ولا بد أن كلّ من في الفندق نائم.

لكن عندما وقفا، رأيا من عليائهما ما كان أدنى من السماء، فأدركا على وجه التحديد أنهما في مدينة، تتقابل فيها المباني البيض، وكلّها مدهونة ومصانة بامتياز وتشبه بعضها البعض، وأمام كل من هذه المباني، ترتفع أشجار من فجوات مستطيلة في الرصيف المرصوف ببلاط مستطيل أو خرسانة موضوعة على شكل بلاط. كانت أشجار كرز، تحمل البراعم والقليل من

الأزهار البيض، كما لو أنها أمطرت ثلجًا مؤخرًا وعلق الثلج في الأغصان والأوراق،على طول الشارع، في شجرة بعد شجرة بعد شجرة، فوقفا محدّقَين في المشهد الذي بدا سوريّاليًا.

انتظرا لفترة، لكنهما كانا يعلمان أنه لا يمكنهما البقاء في غرفة الفندق هذه إلى الأبد، لذلك حاولا فتح الباب الذي لم يكن مقفلًا، فوجدا نفسَيهما في ممر يقود إلى السلالم.نزلا طابقًا واحدًا ليجدا نفسيهما في ردهة سلالم أكبر تقود إلى المزيد من الطوابق وغرف النوم. ثم لاحظا أنها تقود أيضًا إلى غرف جلوس وصالونات، فأدركا حينئذٍ أنهما في منزل، ولا شك في أنه قصر، يضمّ غرفًا فوق غرف وأعاجيب فوق أعاجيب، وصنابير تتدفق منها المياه كما مياه النبع بيضاء رقراقة ناعمة، أجل ناعمة الملمس.

أوشك الفجر على البزوغ في المدينة ولمّا يتمّ اكتشافهما بعد، فجلس سعيد ونانديا في المطبخ يفكّران في ما سيفعلانه. الثلاجة فارغة وتوحي أن أحدًا لم يستخدمها أو يضع فيها طعامًا منذ زمن، وإذ وجدا صناديق تحتوي على علب مواد غذائية أقل قابلية للتلف في الخزائن، لم يرغبا في أن يتم اتهامهما بالسرقة، لذا أخرجا طعامهما من حقيبتهما وسلقا حبّتَي بطاطا للفطور. لكنهما أخذا كيسَيْ شاي صغيرين من المنزل وأعدّا لنفسيهما كوبين من الشاي، واستخدم كلّ منهما ملعقة سكر من المنزل أيضًا، ولو وجدا الحليب في المنزل، لكانا أخذا حاجتهما منه أيضًا، لكن لم يجدا حليبًا.

شغّلا التلفزيون ليريا ما إذا كان يمكنهما اكتشاف أين هما، وسرعان ما توضّحت الصورة بالنسبة إليهما. لقد كانا في لندن، وبينما أخذا يشاهدان التلفزيون بأخباره المتقطعة المروّعة، شعرا بنفسيهما أناسًا طبيعيين إذ لم يشاهدا التلفزيون منذ أشهر خلت. ثم سمعا صوتًا من ورائهما ورأيا رجلًا يقف محدّقًا فيهما، فوقفا سريعًا، وتناول سعيد حقيبة الظهر وحملت ناديا الخيمة، لكن الرجل استدار من غير أن ينبس ببنت شفة وتوجّه إلى الأعلى. لم يعلما كيف يحلّلان تلك الحادثة. بدا الرجل مستهجنًا لما يحيط به الاستهجان نفسه الذي شعرا به، ولم يصادفا أحدًا آخر حتى حلول الليل.

عندما حل الظلام، بدأ الناس يظهرون من الغرفة العليا حيث ظهرت ناديا وسعيد عندما وصلا أولًا: عشرات النيجيريين، ثم قلة من الصوماليين، وبعدهم عائلة جاءت من الحدود بين ميانمار وتايلندا. المزيد والمزيد والمزيد. بعضهم غادر المنزل ما إن استطاع. وآخرون بقوا، محتلين غرفة منامة أو غرفة جلوس.

اختار سعيد وناديا غرفة نوم صغيرة في الخلف، في الطابق الأول فوق الطابق الأرضي. كانت مزودة بشرفة تمكّنهما من القفز إلى الحديقة الخلفية إن لزم الأمر، ومنها يمكنهما الهرب لو حالفهما الحظ إن اضطرا لذلك.

أن يحظيا بغرفة لهما وحدهما -أربعة جدران، ونافذة، وباب بقفل- فهذا هو الحظ الجيد الذي لا يصدّق، وتمنّت ناديا لو

تفرغ الحقيبة، لكنها تعلم أنه عليهما أن يكونا جاهزين للمغادرة في أي لحظة، فأخرجت من الحقيبة ما هو ضروري ليس إلّا. وأخرج سعيد من جهته صورة أهله التي أبقاها مخبّأة بين ملابسه ووضعها على رف الكتب حيث وقفت، معلوكة، تحدّق بهما وتحوّل هذه الغرفة الضيقة، أقلّه جزئيًا ومؤقّتًا، إلى منزل.

في الردهة المجاورة حمّام. وكانت رغبة ناديا في تلك اللحظة أن تستحم تعلو على أي رغبة أخرى، وتعلو على رغبتها في الأكل. وقف سعيد يراقب الخارج بينما دخلت وتعرّت، وراحت تراقب جسدها الذي تخطّى بنحوله أي مرحلة سابقة من حياتها، وقد تبقّع بالأوساخ الناجمة بمعظمها عن تركيبتها البيولوجية، وعن العرق الجاف والبشرة الميتة والشعيرات التي نبتت في أماكن ما كانت لتسمح لها أن تنبت في السابق، فبان لها جسدها جسد حيوان وحشي. كان ضغط المياه في الحمام رائعًا، يطرق على بشرتها بقوة حقيقية، فيردّها نظيفة. وحرارة المياه ممتازة أيضًا، فأدارتها إلى أعلى درجة تستطيع تحمّلها لتسري الحرارة في عظامها، تلك العظام التي نخرتها أشهر من البرد في الخارج، فامتلأ الحمام بالبخار كغابة وسط الجبال، وعبقت رائحة الصنوبر والخزامى من الصابون الذي وجدته، تضاف إليها المناشف الفخمة الناعمة. كان ذلك أشبه بالفردوس، حتى أنها أحسّت بنفسها بعد أن خرجت من المياه أخيرًا وكأنها أميرة، أو أقلّه ابنة ديكتاتور مستعدّ لأنه يقتل بلا رحمة مقابل أن يحظى

أولاده بلحظات نعيم يدللون فيها أنفسهم بمثل هذه القطنيات، ويشعرون ذلك الشعور الرائع يدغدغ بطونهم وأفخاذهم العارية، مناشف بدت وكأنها لم تُستعمل من قبل وقد لا تُستعمل مجدّدًا. بدأت ناديا ترتدي ملابسها لكنها فجأة أحسّت أنها لا تستطيع تحمّلها، ولا سيما تلك الرائحة النتنة المنبعثة منها، فقرّرت أن تغسلها في حوض الاستحمام عندما سمعت طرقًا عنيفًا على الباب وأدركت أنها لا بد قد أقفلته بالقفل. وما إن فتحته حتى رأت سعيد يقف أمامها متّسخًا بعصبية وخوف.

عاجلها قائلًا: «ما الذي تفعلينه بحق الجحيم؟»

فابتسمت واقتربت لتقبّله، وبينما لامست شفاهها شفاهه، لم يستجب كثيرًا.

وأردف قائلًا: «مضى عليك دهر في الداخل. هذا ليس منزلنا».

«أحتاج لخمس دقائق بعد. عليّ أن أغسل ملابسي».

راح يحدّق فيها من غير أن يعارضها في ما أرادت، وحتى لو عارضها، ما كانت لتتزحزح قيد أنملة إذ كانت قد قررت أنها ستغسل ملابسها بكل الأحوال. فما تقوم به، ما قامت به لتوّها، لم يكن بالنسبة لها عبثًا، بل هو الأساس لكي يحس المرء أنه إنسان، يعيش كإنسان، يذكّر نفسه بما كانه، لذا الأمر بالغ الأهمية وجدير بشنّ حرب في سبيله.

لكن يبدو أن مفاعيل الحمام البخاري الرائعة قد تبدّدت ما إن أغلقت الباب وغسلت ملابسها، فباتت مشاهدة المياه العكرة

تتدفّق منها إلى مصفاة الحوض مخيّبة للآمال على الرغم من منفعتها. حاولت أن تستعيد مزاجها الجيد السابق، وألّا تغضب من سعيد، فراحت تقول لنفسها إنه لم يكن مخطئًا من جهته، لكنه كان غير متناغم معها في تلك اللحظة، وعندما خرجت من الحمام، متدثّرة بمنشفتها، بل بمناشفها، إذ وضعت واحدة حول جسمها وأخرى حول شعرها، ثالثة على رقبتها، وملابسها النظيفة تقطر ماء في يدها، كانت على أتم الاستعداد لأن تنسى تلك المواجهة الصغيرة بينهما.

لكنه قال محدّقًا بها: «لا يمكنك الوقوف هكذا هنا».

«لا تقل لي ما الذي أستطيع أو لا أستطيع فعله».

بدا ملسوعًا بتعليقها، وغاضبًا، وهي أيضًا غاضبة، وبعد أن استحم، وغسل ملابسه، ولربما قام بذلك كفعل مصالحة أو ربما لأنه أحسّ ما إن أزال عنه أوساخه بشيء مما أحسّته هي، ناما على السرير الأوحد من غير أن يتكلّما، ومن غير أن يتلامسا، أو من غير أن يتلامسا بما تسمحه لهما تلك المساحة المحصورة، لهذه الليلة الوحيدة. لم يتصرفا على عكس ثنائي تعيس تزوج منذ زمن، بل كثنائي صنع من فرص الفرح مأساة.

عبرت ناديا وسعيد الباب صباح السبت، وبحلول صباح الاثنين عندما جاءت عاملة التنظيف، كان المنزل يعجّ بقاطنيه، مستقبلًا حوالي خمسين نفرًا، من الأطفال إلى العجز. وقد أتوا من أقصى أقاصي العالم، من غواتيمالا في الغرب إلى أندونيسيا

في الشرق. أخذت عاملة التنظيف تصرخ ما إن فتحت الباب الأمامي بمفتاحها، وسرعان ما وصلت الشرطة، رجلان يرتديان قبعتين سوداوين قديمتين، لكنهما لم ينظرا إلا من الخارج ولم يدخلا. ووصلت سريعًا شاحنة محمّلة بعدد إضافي منهم، بكامل عتادهم من أسلحة مكافحة الشغب، ثم سيارة فيها اثنين منهم يرتديان قميصين أبيضين وسترتين سوداوين. كانوا مسلحين بما يبدو أنه مدافع رشاشة، وعلى ستراتهم السود كلمة شرطة بالأبيض، لكن هذين الاثنين بدوا لسعيد ونادیا جنديين.

دبّ الرعب في فرائص النزلاء في المنزل، إذ سبق أن رأى معظمهم ماذا يمكن للشرطة والجنود أن يفعلوا، وفي هولهم راحوا يتحدّثون مع بعضهم البعض أكثر مما يفعلون عادة. كانوا غرباء يتكلمون مع غرباء. وتطوّر نوع من الزمالة، ما كانت لتحصل لو كانوا في الشارع، في العراء، إذ لكانوا حينئذ قد تشتتوا، وكلّ همّه نفسه، لكن هنا، كانوا موجودين معًا، ووجودهم معًا جعلهم يتجمعون، فيتحولون إلى مجموعة.

عندما طالبت الشرطة عبر مكبرات الصوت الجميع بمغادرة المنزل، أعلن معظم الموجودين أنهم لن يقوموا بذلك. وهكذا، بينما غادر القليل منهم، بقي السواد الأعظم، ومن بينهم نادیا وسعيد. وأخذت المهلة التي أعطيت لهم للمغادرة تقترب من نهايتها، وتقترب أكثر فأكثر، ثم انتهت المهلة، وما زالوا قابعين في أماكنهم، من غير أن تقوم الشرطة بأي خطوة، فشعروا أنهم

ربحوا مهلة إضافية، ثم حصل ما لم يكن في الحسبان: تجمع أناس آخرون في الشارع، بعضهم داكنو البشرة وبعضهم معتدلو اللون وآخرون ذوو سحنة فاتحة، يشبهون سكان مخيمات ميكونوس، وشكلوا حشدًا. ثم قاموا بطرق أواني الطبخ بالملاعق وغنوا بلغات عدة فبادرت الشرطة إلى مغادرة المكان.

في تلك الليلة، ساد الهدوء المنزل، على الرغم من سماع بعض مقطوعات الغناء الجميلة من حين إلى آخر، بلغة الإيبو النيجيريّة، واستمر ذلك حتى ساعة متأخرة، فاستلقى سعيد ونادیا معًا وأمسكا بأيديهما على السرير الناعم في غرفتهما الصغيرة الخلفية، فأدخل إليهما ذلك الغناء بعض الراحة، حتى بدا لهما كما لو أنه تهويدة أدخلت بعض الراحة والطمأنينة على الرغم من حرصهما على إبقاء باب غرفتهما مقفلًا بالمفتاح. وفي صباح اليوم التالي سمعا عن بعد أحدهم يدعو إلى الصلاة عند الفجر، لربما عبر آلة لغناء الكارا أوكي، فشعرت ناديا بالقلق، وقد استفاقت من حلم، فخالت نفسها لثانية أنها في منزلها في مدينتها، مع المقاتلين، قبل أن تدرك أين هي فعلًا، ثم شاهدت، بنوع من المفاجأة، سعيد يخرج من السرير ويصلّي.

غرقت أنحاء لندن كلّها، من منازل ومنتزهات وأماكن شاغرة، بالمهاجرين على هذا النحو، وقد تكلّم البعض عن مليون مهاجر، بينما قال آخرون إن أعدادهم ضعف هذا الرقم. فكلّما برزت مساحة شاغرة في المدينة، جذبت إليها هؤلاء المستوطنين،

لتكون القصور غير المأهولة في ضواحي كنسينغتون وتشيلسي على وجه التحديد الأكثر عرضة لهذه الحشود، إذ غالبًا ما يكتشف مالكوها الغائبون الخبر السيء متأخرين فلا يسعهم التدخل، وكذلك الأمر في المساحات الشاسعة في هايد بارك وحدائق كنسينغتون التي امتلأت بالخيم والملاجئ العشوائية، حتى باتت الأرقام تشير إلى أنه بين وستمنستر وهامرسميث أصبح المواطنون الشرعيون أقلية، والسكان الأصليون يضمحلون، بينما تشير الصحف المحلية إلى تلك المنطقة على أنها الأسوأ على صعيد نسيج الأمة.

لكن حتى مع تدفّق الناس إلى لندن، كان البعض يغامر خارجها أيضًا. فمحاسب في بلدة كنتيش كان على وشك أن يقضي على حياته، استيقظ صبيحة أحد الأيام ليكتشف سواد أحد الأبواب حيث كان المدخل المشع لغرفة نومه الثانية الصغيرة. وإذ تحصّن بادئ ذي بدء بعصا الهوكي التي تركتها ابنته في خزانته، وقد تركتها هناك مع أشياء أخرى لها تخلّت عنها من أجل إجازتها السنوية، ثم تناول هاتفه ليتصل بالسلطات، توقف ليتساءل لماذا يفعل ذلك، وسارع إلى التخلي عن عصا الهوكي وهاتفه، وملأ حوض الحمام كما خطط مسبقًا، ووضع المشرط القاطع الذي اشتراه على الرف الصدفي الصغير إلى جانب الصابون العضوي الذي لن تستخدمه صديقته السابقة بعد اليوم.

وذكّر نفسه أنه عليه أن يشرط يده بالطول إن كان جادًّا في ما

سيفعله، وتحديدًا عند ساعده، ومع أنه يكره فكرة الألم، وأن يتم اكتشافه عاريًا، إلا أنه فكر أن هذه هي الطريقة المناسبة، بعد التخطيط المناسب. لكن السواد المجاور أربكه، وذكّره بشيء ما، بشعور ما، شعور ربطه بكتب الأطفال، بكتب قرأها بينما كان طفلًا، أو بكتب قُرئت له، قرأتها أمه، تلك المرأة التي تميزت بلثغة لطيفة وعناق لطيف والتي لم تتوفَ وهي شابة جدًا لكنّ صحتها تدهورت وهي شابة جدًا، إذ قضى مرضها على قدرتها على الكلام، وعلى شخصيتها، كما قضى على والده أيضًا، فجعله شخصًا باردًا بعيدًا. وبينما أخذ المحاسب يسترجع ذكرياته، فكّر بأن يخطو خارج الباب، ولو مرة، ليكتشف ماذا تخبئ الجهة الثانية، وهكذا كان.

لاحقًا تلقّت ابنته وصديقه المفضل عبر هاتفيهما صورة له، على شاطئ بحر يبدو أن لا أشجار فيه، شاطئ بحر صحراوي، أو شاطئ بحر كان بكل الأحوال جافًا، تملؤه الكثبان الرملية الشاهقة، شاطئ رمل في ناميبيا، ورسالة تفيد بأنه لن يعود، لكن لا داعي للقلق، فقد شعر شعورًا، شعر شعورًا قويًا بالتغيير، وبوسعهما اللحاق به، وسيسرّه لو فعلا ذلك، وإن قررا، فثمة باب في شقته. وهكذا رحل، ورحلت مدينته لندن، ويصعب على كل من عرفه أن يحدد كم بقي في ناميبيا.

تساءل سكان المنزل الذي تحتلّه ناديا وسعيد ما إذا ربحوا معركتهم. وراحوا يتلذذون بوجودهم في الداخل، بعد أن قضى

الكثير منهم أشهرًا عديدة من دون سقف يحمي رؤوسهم، لكنهم كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم أن منزلًا كهذا، أو قصرًا كهذا، لا يمكن التخلي عنه بسهولة، وتاليًا فإن راحتهم هشة بعض الشيء.

استكشفت ناديا محيط المنزل وكأنها في مهجع جامعي في بداية الصفوف، حيث يعيش أغراب على مقربة منها، ومعظمهم يعكس أفضل تصرّف له، محاولًا أن يضيف بعض الدفء للمحادثات أو يعقد صداقات آملًا أن تتحول هذه السلوكيات تلقائية مع الوقت. خارج المنزل كثير من العشوائية والفوضى، أما داخله، فلربما يمكن إرساء نوع من النظام. لربما حتى مجتمع. لا شك أن من بين القاطنين في المنزل من هم عنيفون، لكن العنيفين موجودين في كل مجتمع، وفي الحياة لا بد من السيطرة على العنف. ورأت ناديا أنه من الجنون توقّع أي سلوك آخر.

أما بالنسبة لسعيد، فالوجود في المنزل أكثر تنافرًا. لقد فضّل في ميكونوس ضواحي مخيمات المهاجرين، واعتاد على درجة من الاستقلالية عن نظرائه من اللاجئين. لكنّه هنا، أحسّ بالريبة، ولا سيما من الرجال الآخرين من حوله، وعددهم كبير، فاعتبر وجوده في ذاك المكان المكتظ مع أولئك الذين يتكلمون لغات لا يفهمها أمرًا ضاغطًا. وبعكس ناديا، شعر بنوع من الذنب لاحتلاله هو والقاطنون الآخرون منزلًا ليس منزلهم، وبالذنب للضرر الجليّ الذي ألحقه حضورهم، حضور أكثر من خمسين ساكنًا في مكان واحد.

فكان الوحيد الذي أبدى اعتراضًا عندما بدأ السكان يأخذون لأنفسهم أغراضًا قيّمة من المنزل، وهو موقف صدم ناديا على اعتباره موقفًا عبثيًا، وخطيرًا على سعيد، فطلبت منه ألّا يكون غبيًا، قالتها بقساوة لتحميه وليس لتؤذيه، لكنه صُدم بنبرتها. وبينما أذعن لها تساءل إن كانت هذه هي الطريقة الجديدة التي سيلجآن إليها ليكلّما بعضهما البعض. تلك القسوة التي بدأت تصبغ كلامهما من وقت لآخر، نوع من إشارة عمَّ ينتظرهما.

كما لاحظت ناديا تواتر الاحتكاك بينهما. ولم تكن واثقة مما يفترض بها أن تقوم به لوقف دوامة الكدر التي يبدو أن كلًا منهما يلحقها بالآخر، إذ ما إن تبدأ تلك الدوامة حتى يصعب كسرها، بل على العكس، كما لو أن كلًا منهما يخفض كل مرة من عتبة الغضب، حالهم حال بعض أنواع الحساسية.

استُهلكت الأطعمة المتوفرة كلها في المنزل سريعًا. وإذا كان لدى بعض المقيمين المال لشراء المزيد، فقد اضطر آخرون لقضاء وقتهم وهم يبحثون عن مأكل لهم، فتوجهوا إلى المستودعات والأكشاك حيث عملت مجموعات عدة على توزيع حصص غذائية أو تقديم الحساء والخبز مجانًا. لكن المؤونة اليومية من كل من هذه كانت تستنفد خلال ساعات، وأحيانًا دقائق، ليبقى الحل الوحيد المقايضة مع أحد الجيران أو الأقارب أو المعارف، وبما أنه ليس لدى معظم الناس حتى القليل ليقايضوه، فغالبًا ما كانوا يقايضون بوعد بشيء يأكلونه في

الغد أو في اليوم الذي يليه مقابل شيء يأكلونه اليوم، أي نوع من المقايضة لا يتناول السلع بحد ذاتها بل الوقت.

في أحد الأيام، عاد سعيد ونانديا إلى المنزل من دون طعام إنما ببطون ملأى بكل تواضع، بعد مساء مقبول قضياه بحثًا عن طعام، وكانت تتلذذ بذلك الطعم الحلو الغريب الذي يميز حموضة الخردل والكتشاب، بينما ينظر سعيد في هاتفه. وإذا بهما يسمعان صراخًا أمامهما ويشاهدان أناسًا يركضون، فأدركا أن شارعهما قد تعرض للهجوم على يد غوغائيين، شارع بالاس غاردن تراس الذي لم يعد يشبه اسمه البتة. بدا الغوغائيون لناديا قبيلة غريبة عنيفة، مصرّون على التخريب والدمار. كان بعضهم مسلحًا بقضبان حديد أو سكاكين، فاستدارت هي وسعيد محاولَيْن الهرب، لكنهما لم يستطيعا إلى ذلك سبيلًا.

تعرضت عين ناديا لكدمة وسرعان ما تورّمت وانتفخت حتى أطبقت، بينما انشقّت شفة سعيد ونزفت حتى ذقنه وسترته. ووسط الرعب الذي تملّكهما، تمسّك كل منهما بيد الآخر بكل ما أوتي من قوة كي لا ينفصلا، لكنهما طُرحا أرضًا كآخرين كثر، وفي ذاك المساء الذي اصطبغ بأعمال الشغب في ناحيتهما من لندن، لقيت ثلاث أرواح حتفها، وهذا رقم زهيد وفق المعايير السائدة في البلاد التي قدما منها.

وفي الصباح، بدا سريرهما صغيرًا ضيقًا عليهما، نتيجة الإصابات التي تعرّضا لها، فدفعت ناديا بسعيد بعيدًا بواسطة

وركها، محاولة أن تكسب مساحة إضافية لنفسها، ودفعها سعيد بدوره، ساعيًا وراء الهدف نفسه، فاستشاطت غضبًا لبرهة، ثم استدارا وجهًا لوجه فلمس عينها المتورّمة المطبقة فشخرت ولمست شفته المتورمة، ونظرا إلى بعضهما البعض ووافقا بصمت على الانطلاق بنهار بلا تذمّر.

بعد أعمال الشغب، تحدّثت الأخبار على التلفزيون عن عملية كبرى، المدينة تلو الأخرى، بدءًا بلندن، لاستعادة بريطانيا للبريطانيين، وأفيد عن بدء نشر الجيش، والشرطة أيضًا، وأولئك الذين خدموا في السابق في الجيش والشرطة، والمتطوّعين الذين تلقوا تدريبًا لفترة أسبوع. وتناهى إلى مسامع سعيد ونادیا خبر مفاده أن المتطرفين الأصوليين يشكلون قواتهم الخاصة، بتواطؤ ضمني من السلطات، وأن وسائل التواصل الاجتماعي تتحدّث عن ليلة يتطاير فيها الزجاج، لكن ذلك كلّه يحتاج إلى وقت للتنظيم، ويتعين على سعيد ونادیا، خلال هذا الوقت، أن يتّخذا قرارهما: هل يبقيان أو يغادران.

جلسا في غرفة نومهما الصغيرة عند المغيب يستمعان إلى الموسيقى على هاتف نادیا، مستخدمين مكبّر صوت الهاتف نفسه. لا أسهل من بث الموسيقى من مختلف المواقع الالكترونية، لكنهما حاولا أن يقتصدا، بما في ذلك حزمة البيانات التي يشتريانها لهاتفيهما، فعمدت نادیا إلى تنزيل نسخ مقرصنة كلما وجدتها، ليستمعا إليها. وفي كل الأحوال شعرت

بالغبطة لإعادة تشكيل مكتبتها الموسيقية: فاستنادًا إلى تجربة سابقة، لم تعد تثق بتوفر الأشياء على الشبكة بشكل متواصل.

في إحدى الليالي، وضعت ألبومًا موسيقيًا لفرقة شعبية محلية في مدينتهما عندما كانا في مرحلة المراهقة، كانت تعلم أن سعيد يحبّه. فتفاجأ وأسعده أن يستمع إليه، لأنه كان يعرف جيدًا أنها لا تحبذ هذا النوع من موسيقى البوب في بلادهما، فمن الواضح أنها وضعت هذه الموسيقى لإرضائه هو.

جلسا متربّعين على سريرهما الضيق وظهريهما مستندين إلى الجدار. مدّ يده واضعًا راحته على ركبته. فأخذتها.

وقالت: «فلنتفق على أن نسعى لئلا نكلّم بعضنا بطريقة سيئة بعد اليوم».

فابتسم وقال: «دعينا نعد بعضنا بذلك. من جهتي أنا أعدك».

«وأنا أعدك أيضًا».

في تلك الليلة، سألها عما تكونه الحياة الحلم بالنسبة إليها، هل تكون في عاصمة كبرى أو في الريف، فسألته ما إذا يستطيع أن يرى كليهما مستقرين في لندن لا يغادرانها. وأخذا يتناقشان كيف يمكن للمنزل الذي يحتلانه أن يقسَّم إلى شقق فعلية، وكيف يمكنهما أيضًا البدء من جديد في مكان آخر، في مكان آخر في هذه المدينة، أو في أي مدينة بعيدة.

شعرا بتقارب أكبر في الليالي بينما يُعِدّان مثل هذه المخططات، مع أن الأحداث الكبرى شتتت انتباههما عن وقائع

الحياة اليومية، وبينما كانا يناقشان أحيانًا خياراتهما في غرفة نومهما، يتوقفان وينظران إلى بعضهما البعض كما لو يتذكّر كل منهما من هو الآخر.

بدت العودة إلى حيث ولدا غير واردة، مدركَيْن أنه في مدن أخرى مرغوب بها، وفي دول أخرى مرغوب بها، لا بد من أن أحداثًا مماثلة تقع، أحداث تتناول ردود فعل عنيفة يقوم بها ناشطون متعصّبون. وعلى الرغم من تناولهما إمكانية مغادرة لندن، إلا أنهما فضلا البقاء. وبدأت الشائعات تتناقل عن تضييق الخناق عبر وضع شريط يحاصر مقاطعات لندن التي باتت تمتلك عددًا أقل من الأبواب، وتاليًا تقليل عدد الوافدين حديثًا، وإرسال أولئك الذين لا يملكون أي إثبات على إقامتهم الشرعية إلى مخيمات كبرى تم بناؤها في حزام المدينة الأخضر، وحصر أولئك الذين بقوا في بعض الجيوب إلى حجم أصغر. وبغضّ النظر عما إذا كانت المعلومات صحيحة أم لا، فالمؤكد أن منطقتي كنسينغتون وتشيلسي والمنتزهات المجاورة باتت مناطق ذات كثافة مهاجرين كبيرة، يحوط بها الجنود والآليات العسكرية، وفوقها تحوم الطائرات من دون طيار وطائرات الهليكوبتر، وداخلها ناديا وسعيد، اللذين سبق لهما أن هربا من حرب، ولا يدريان إلى أين سيهربان تاليًا. فجلسا ينتظران، وينتظران، كآخرين كثر.

ووسط ذلك كلّه، لم يخلُ الأمر من متطوّعين يقدمون الطعام

والأدوية في المنطقة، ومن وكالات مساعدة تعمل جاهدة، إذ لم تمنعها الحكومة عن العمل، كما فعلت بعض الحكومات التي هرب منها المهاجرون، وهو الأمر الذي يبعث الأمل. وقد تأثر سعيد على وجه التحديد بصبي من السكان الأصليين، قد أنهى لتوّه المدرسة، أو لربما كان في سنته الأخيرة، جاء إلى منزلهم وأعطى لقاح الشلل للأطفال والراشدين أيضًا، وبينما ارتاب كثيرون من اللقاحات، فقد سبق لآخرين كثر بما فيهم سعيد ونانديا أن أخذوا اللقاح، إلا أن الصبي أظهر مصداقية وعطفًا وحسن نية حالت دون أن يقوى كثيرون على كسر قلبه ورفض اللقاح، على الرغم من مجادلة بعضهم له.

أدرك سعيد ونانديا جيدًا كيف تكون الأجواء التي تسبق أي نزاع، لذا فلم يكن ذاك الشعور الذي خيّم فوق لندن في تلك الأيام بالجديد بالنسبة إليهما، لكنهما لم يواجهاه بشجاعة على وجه التحديد، ولا بخوف أو ذعر، لكن بإصرار يتخلله لحظات توتّر، فيتراوح التوتر بين مدّ وجزر، وعندما يتراجع التوتّر يسود الهدوء، ذلك الهدوء الذي يقال عنه هدوء ما قبل العاصفة، لكنه في الواقع أساس حياة الإنسان، حياة تنتظرنا هناك ما بين خطوات تقودنا إلى الفناء، عندما نجبر على التوقف لبرهة فلا نتصرف بل نكون.

أزهرت أشجار الكرز في شارع بالاس غاردن تراس في تلك الفترة من السنة، فتزيّنت بزهر أبيض، رآه عدد من المقيمين

الجدد في الشارع أقرب إلى الثلج، وذكّرت آخرين بحقول القطن المزهرة، التي تنتظر قطافها، تنتظر اليد العاملة، تنتظر جهود الأجساد السمر من القرى، وفي هذه الأشجار أجساد سمر الآن أيضًا، أطفال يتسلقون ويلعبون بين الأغصان، سعادين صغيرة، ليس لأن السمرة تعني أن يكون المرء سعدانًا، مع أن تلك الصورة كانت وستكون لفترة طويلة، بل لأن الناس هم سعادين نسوا أنهم سعادين، وتاليًا افتقدوا أي احترام لما ولدوا منه، للعالم الطبيعي من حولهم، لكن ليس أولئك الأطفال، الفرحين في الطبيعة، يلعبون ألعابًا يتخيلونها، وقد تاهوا في السحب البيضاء كراكب منطاد أو قائد طائرة أو طائر فينيق أو تنّين. وبينما ارتسم سفك الدماء في الأفق، صنعوا من هذه الأشجار التي ليست مزروعة ليتم تسلقها، صنعوا مادة لآلاف الأوهام.

في إحدى الليالي، ظهر ثعلب في حديقة المنزل الذي يقطنه سعيد وناديا. لفت سعيد نظر ناديا مشيرا إليه من خلال نافذة غرفتهما الصغيرة الخلفية، وقد أدهشتهما رؤيته، فتساءلا كيف يمكن لمثل هذا المخلوق أن يعيش في لندن، ومن أين أتى. وعندما سألا من حولهما إن رأى أحد ثعلبًا، أجابوا كلهم بالنفي، وأشار البعض إلى أنه ربما أتى عبر إحدى الأبواب، بينما اعتبر آخرون أنه لربما شرد من الريف، وأفاد غيرهم أنه من المعروف أن الثعالب تعيش في هذا الجزء من لندن، وقالت لهما امرأة عجوز إنهما لم يريا ثعلبًا، بل رأيا نفسَيهما، رأيا حبّهما. فتساءلا

إن عنت بقولها أن الثعلب هو رمز حيّ أو أن الثعلب غير حقيقي، وأن هذا مجرّد شعور، لذلك فإن الآخرين لا يرون أي ثعلب على الإطلاق.

غير أن الإتيان على ذكر حبّهما وضع سعيد ونانديا في موضع الإرباك، إذ لم يكونا على قدر من الرومانسية في الآونة الأخيرة، وكلّ واحد يزن تأثير حضوره على الآخر. وقد اعتبرا أن السبب في ذلك هو بقاؤهما بجوار بعضهما البعض لفترة طويلة، في وضعية تقارب غير طبيعية، وهذا ما جعل العلاقة بمثابة عبء يرزحان تحته. فبدآ يتجوّلان كل بمفرده خلال النهار، وجاء هذا الانفصال بمثابة راحة لكليهما، مع أن سعيد ارتاب من احتمال اندلاع المعارك لتطهير منطقتهم فجأة بما يحول دون عودتهما إلى المنزل، وقد علّمته التجربة السابقة أن الهاتف الخلوي قد يتوقّف عن العمل، إذ يمكن لإشارته التي تشبه في الظروف الطبيعية ضوء شمس أو ضوء قمر أن تتحول إلى خسوف أو كسوف أبدي في غضون لحظات. أما ناديا، فكانت قلقة على الوعد الذي قطعته لوالد سعيد، ذاك الذي تدعوه والدي، بالبقاء إلى جانب سعيد حتى يصبح بأمان. كانت قلقة من أن تتحوّل عن الوفاء بوعدها، وما إذا كان ذلك يعني أنها نكثت بوعدها كلّه..

وإذا بهما بعد انعتاقهما من التقارب الخانق خلال النهار، بتجوالهما منفردين، يجدان نفسيهما أكثر تقاربًا ودفئًا خلال الليل، حتى لو بدا ذلك الدفء أحيانًا دفئًا بين أنسباء أكثر منه بين

محبين. بدآ يجلسان على الشرفة خارج غرفة نومهما ينتظران في الظلام ظهور الثعلب تحت، في الحديقة. يا له من حيوان نبيل، نبيل على الرغم من ولعه بالتنقيب بالقمامة.

وبينما يجلسان، يمسكان أحيانًا بيدي بعضهما البعض، ويقبلان بعضهما البعض أحيانًا، وبين الفينة والأخرى يشعران بتجدد الشعلة التي كانت قد بدأت تنطفئ بينهما فيتوجهان إلى السرير يعذّبان جسدي بعضهما البعض، من غير أن يمارسا الجنس أبدًا، لكن دونما حاجة لذلك، ليس بعد الآن، متّبعين طقوسًا مختلفة تفرغ الطاقة الكامنة فيهما. ثم يخلدان إلى النوم. وإن لم يشعرا بالرغبة في النوم، يعودان إلى الشرفة وينتظران الثعلب، ذلك الثعلب الذي لا يمكن توقّعه، فقد يأتي وقد لا يأتي، لكنّه غالبًا ما أتى، فكانا يشعران بالراحة عندما يأتي إذ يعني ذلك أن الثعلب لم يختفِ ولم يُقتل ولم يجد جزءًا آخر من المدينة ويجعل منه منزلًا له. وفي إحدى الليالي صادف الثعلب حفاضًا متسخًا فسحبه من القمامة وتشمّمه، كما لو أنه يتساءل ما هذا، ثم جرّه حول الحديقة، ملوّثًا العشب، مغيّرًا مساره مرة تلو الأخرى، كجرو صغير يلعب بدمية، أو دب يواجه ورطة صياد يتبعه، فيتحرك بشتى الاتجاهات بتصميم وشراسة، وعندما انتهى أمسى الحفاض أشلاء.

في تلك الليلة انقطع التيار الكهربائي، قطعته السلطات، فغرقت كنسينغتون وتشيلسي في ظلام دامس. وخيّم الرعب

على الجميع، واختفت الدعوة إلى الصلاة التي لطالما سمعوها عن بعد. فافترضوا أن مشغّل الكارا أوكي الذي لربما استُخدم سابقًا لهذه المهمة لا يعمل على البطارية.

الفصل الثامن

شبكة الكهرباء في لندن بالغة التعقيد إذ حافظت بضع بقع في منطقة سعيد ونانديا على نعمة الضوء، في منازل واقعة عند الأطراف، بالقرب من الثكنات والحواجز التي تديرها القوات الحكومية المسلحة، وفي جيوب مشتّتة يصعب لسبب ما قطع الكهرباء عنها، وفي مبان عرضيّة هنا وهناك، حيث عمد مهاجر ناشط إلى ربط وصلة الكهرباء بخط توتر عالٍ، معرّضًا حياته للخطر ومسلمًا الروح في بعض الأحيان لصعقة كهربائية. ومع ذلك، خيّم ظلام دامس حول سعيد ونانديا.

لم تكن ميكونوس تشعّ بالأنوار، لكن الكهرباء وصلت إلى كلّ مكان بفعل الأسلاك. وفي مدينتهما التي هربا منها، عندما اختفت الكهرباء، اختفت عن الجميع. لكن في لندن، ثمة مواقع مشعة مضاءة، مشعّة أكثر من أي إشعاع سبق لسعيد ونانديا أن رأياه من قبل، إشعاع يتلألأ في السماء وينعكس من السحب. وفي المقابل، تبدو الأجزاء المظلمة من المدينة أكثر ظلمة، بل أكثر

سوادًا، ذاك السواد الذي لا يوحي في المحيط بضعف الأنوار من الأعلى، بل بسقوط مفاجئ إلى أعمق الأعماق.

ومن لندن المظلمة، تساءل سعيد ونواديا كيف تبدو الحياة في لندن المشعة، فراحا يتخيلان أناسًا يتناولون العشاء في مطاعم فاخرة ويتجوّلون بسيارات أجرة سوداء لمّاعة، أو يتوجهّون إلى العمل في مكاتب ومحلات فخمة، ويأخذون أيام عطلة كلّما طاب لهم ذلك.

وفي لندن المظلمة، تراكمت القمامة، من غير أن يتمّ جمعها، وأغلقت محطّات القطارات. لكن القطارات واصلت سيرها، من غير أن تتوقف في محطات بالقرب من مكان إقامة سعيد ونواديا اللذين لم ينفكا يرتعشان بفعل هديرها تحت أقدامهما بل واصلا سماع صوت منخفض وقوي، أشبه بالرعد أو بتفجير قنبلة ضخمة عن بعد.

وفي الليل، عندما يحلّ الظلام، وتبدأ الطائرات من دون طيار وطائرات الهليكوبتر وبالونات المراقبة تحوم على نحو متقطّع فوق رؤوسهم، تندلع المعارك أحيانًا، وتترافق مع عمليات اغتيال واغتصاب واعتداءات. وقد ألقى البعض في لندن المظلمة باللوم لوقوع هذه الحوادث على محرّضين نشطين. في المقابل، اتهم آخرون مهاجرين آخرين، وبدأوا بالتحرك كما بطاقات لعبة الورق متجمعين في بدلات وصفوف اختاروها لأنفسهم، كل شبيه مع

شبيهه، أو كل شبيه سطحي مع شبيهه السطحي، القلوب كلها معًا، والنوادي كلها معًا والسودانيون كلهم وأهل هوندوراس كلهم.

لم ينتقل سعيد ونااديا، لكن ملامح التغيير بدأت تظهر على منزلهما. فالنيجيريون كانوا في البداية أكبر مجموعات المقيمين، غير أنه في أحيان كثيرة تغادر أسرة غير نيجيرية المنزل لتستبدل على نحو دائم تقريبًا بالمزيد من النيجيريين، وسرعان ما عُرف المنزل بالمنزل النيجيري، كما المنزلين على الجانبين. ويجتمع كبار السن من النيجيريين في المنازل الثلاثة في حديقة المنزل الذي يقع إلى يمين منزل سعيد ونااديا، ويطلقون على هذا الاجتماع اسم المجلس. يحضره النساء والرجال.أما غير النيجيرية الوحيدة التي كانت تحضر أيضًا، فقد كانت نااديا.

في أول مرة انضمت نااديا إليهم، بدا الآخرون متفاجئين برؤيتها، ليس بسبب عرقها بل نتيجة صغر سنّها نسبيًا. فسادت بضع لحظات صمت، قبل أن تقوم امرأة عجوز محجّبة تعيش مع ابنتها وأحفادها في غرفة نوم فوق غرفة نوم سعيد ونااديا، وقد ساعدتها نااديا في أكثر من مناسبة على صعود السلالم نظرًا لضخامة المرأة، تلك المرأة العجوز أومأت إلى نااديا مشيرة إليها أن تقف إلى جانبها بالقرب من كرسي الحديقة الذي كانت تجلس عليه. وكأن ذلك حلّ المشكلة، فلم يعد أحد يتساءل عن سبب وجود نااديا أو يطلب منها المغادرة.

في البداية لم تكن نااديا تفهم الكثير مما يقال، فتلتقط شذرات

الكلام من هنا وهناك ليس إلا، لكنّها مع الوقت بدأت تفهم أكثر فأكثر، وفهمت أيضًا أن النيجيريين في الواقع ليسوا كلهم نيجيريون، فبعضهم نصف نيجيريين، أو من أماكن تقع على الحدود مع نيجيريا، من عائلات تتحدّر من جانبي الحدود، وأكثر من ذلك، قد لا يكون ثمة ما اسمه نيجيري، أو بالتأكيد ما من إجماع على لغة نيجيرية، فالنيجيريون يتكلمون لغات ولهجات مختلفة في ما بين بعضهم البعض وينتمون إلى ديانات مختلفة. وفي هذه المجموعة راحوا يتحاورون بلغة بنوها بجزئها الأكبر من اللغة الإنجليزية، لكن ليس من الإنجليزية وحسب، وبعضهم كان أكثر طلاقة باللغة الإنجليزية من البعض الآخر. كما تكلّموا مختلف لهجات الإجليزية، تكلموا بإنجليزيات متعددة. وهكذا عندما كانت ناديا تشاركهم بأن تعبّر عن فكرة أو رأي، ما كانت لتخشى من عدم فهم ما تقوله من رأي، إذ إنجليزيتها شأنها شأن إنكجليزيتهم، إنجليزية بين إنجليزيات عدة.

تمحورت أنشطة المجلس حول أمور عادية، من اتخاذ القرارات بشأن النزاعات حول الغرف، أو الادعاءات بالسرقة أو السلوك غير الجائر، بالإضافة إلى العلاقات مع منازل أخرى في الشارع نفسه. وغالبًا ما تسير المداولات بطيئة ومرهقة، لذا ما كانت هذه التجمّعات بالمثيرة على وجه التحديد. ومع ذلك، انتظرت ناديا انعقادها بفارغ الصبر، إذ شكّلت شيئًا جديدًا في ذهنها، ولادة شيء جديد، ووجدت هؤلاء الناس الذين يشبهون

ولا يشبهون الناس في مدينتها، المألوفين وغير المألوفين، وجدتهم مثيرين للاهتمام، ووجدت قبولهم لها، أقله شكليًا، أو أقله تحمّلها، أمرًا مجزيًا أو إنجازًا نوعًا ما.

حظيت ناديا بين الشباب من النيجيريين بوضعية خاصة، ربما لأنهم رأوها مع كبار السن من بلادهم، أو ربما بسبب فستانها الأسود، فنادرًا ما عمد النيجيريون من شباب وشابات وصبية وفتيات، أولئك الذين لديهم دائمًا ما يسخرون منه بخصوص آخرين في المنزل، نادرًا ما عمدوا إلى التفوّه بأي شيء من هذا القبيل لها أو عنها، أو أقلّه في حضورها. فراحت تتحرّك ذهابًا وإيابًا عبر الغرف والممرّات المكتظة بكل هدوء، هدوء لا تقطعه إلا امرأة نيجيرية سريعة الكلام من عمرها تقريبًا، امرأة ترتدي سترة جلدية وتظهر سنًا مكسورًا، تقف كحامل السلاح، فاتحة وركيها وراخية بطنها وواضعة يديها على جانبيها، فلا توفّر أحدًا من قصفها الكلامي، ومن تعليقاتها التي تلاحقك حتى بعد أن تتوارى عن أنظارها.

غير أن سعيد كان أقل راحة. فبما أنه كان شابًا، عمد الشبان الآخرون إلى التعالي عليه من وقت لآخر، كما يفعل الشبان، فوجد سعيد ذلك مثيرًا للقلق. ليس لأنه لم يختبر وضعًا مماثلًا في بلاده، بل حدث ذلك معه، لكن هنا في هذا المنزل، كان الرجل الوحيد من بلاده، وأولئك الذين يتعالون عليه من بلد آخر، وعددهم يفوقه بكثير، فقد كان وحيدًا. وهذا ما استحضر

حالة أساسية، أشبه بالقبلية، وأثار لديه التوتر ونوعًا من الخوف المقموع. فلم يكن يعي متى يستطيع أن يستريح، وهل يمكنه أن يستريح. وهكذا عندما كان خارج غرفته، لكن داخل المنزل، نادرًا ما شعر براحة مطلقة.

كان وحيدًا في إحدى المرّات بعد عودته إلى المنزل بينما تحضر ناديا اجتماعًا للمنزل، فوقفت المرأة صاحبة السترة الجلدية في الردهة، معرقلة مساره بتضاريسها، متّكئة بظهرها على أحد الجدران، ومثبتة قدمًا لها على أخرى. لم يرق لسعيد أن يعترف أنها ترهبه، بفعل إصرارها وسرعة كلماتها وعدم إمكانية التنبؤ بها، كلمات غالبًا ما لم يتمكّن من فهمها، لكنها كلمات حملت آخرين على الضحك. وقف هناك وانتظر أن تحيد قليلًا، وأن تفسح له المجال حتى يمرّ. لكنها لم تتحرك، فقال عذرًا، فردّت لماذا عليّ أن أعذرك، وقالت أكثر من ذلك. لكن جلّ ما استطاع التقاطه كانت هذه الجملة. استشاط سعيد غضبًا لأنها كانت تتلاعب به، وساوره القلق أيضًا، ففكر في أن يستدير ويعود لاحقًا، لكنه أدرك في تلك اللحظة أن ثمة رجل وراءه، رجل نيجيري قاسي الملامح. وقد سمع سعيد أن هذا الرجل يملك سلاحًا، مع أنه لم يره معه، لكن عددًا من المهاجرين في لندن المظلمة قد اعتادوا حمل سكاكين وأسلحة أخرى، بعد أن أصبحوا تحت الحصار وعرضة لأي هجوم تنفّذه القوات الحكومية في أي وقت كان، أو هم اعتادوا حمل السلاح

في الدول التي أتوا منها، لذلك واصلوا تلك العادة هنا، وقد ظنّ سعيد أن هذه حال الرجل هنا.

أراد سعيد الهروب، لكن لا مكان يهرب إليه، فحاول أو يخفي روعه، لكن المرأة صاحبة السترة الجلدية أزالت قدمها عن الجدار، فأفسحت المجال أمام سعيد للمرور، فبذل جهده ملتصقًا بجسدها في عبوره، وقد أصيب برجولته بسبب ذلك. وعندما أصبح وحيدًا في غرفته وغرفة ناديا، جلس على السرير ونبضات قلبه تسابق بعضها بعضًا وأراد أن يصرخ وأن ينزوي في زاوية ولا يخرج، لكنه بالطبع لم يفعل أيًا من ذلك.

عند المنعطف وتحديدًا في كاراج غايت، منزل يعرف أنه يحتوي على أناس من بلاده. بدأ سعيد يقضي المزيد من الوقت هناك، بعد أن جذبته اللغة واللهجات التي اعتادها ورائحة الطبخ المألوفة. وبعد ظهر أحد الأيام، توجّه إلى هناك وقت الصلاة، فالتحق بأترابه للصلاة في الحديقة الخلفية، تحت زرقة سماء صافية بدت صادمة بزرقتها، كسماء عالم آخر، يغيب عنها الغبار الجوي الذي يميّز المدينة حيث أمضى حياته كاملة، فيبدو المشهد من الفضاء من موقع أعلى، في نظرة إلى الأرض التي تدور وتدور، أكثر قربًا إلى القطب منه إلى خط الاستواء، ويضحي النظر إلى العدم من زاوية أخرى، زاوية أكثر زرقة، فشعر بينما يصلي أن الصلاة مختلفة نوعًا ما، هنا في حديقة هذا المنزل مع هؤلاء الرجال. وأحس أنه جزء من شي ما، ليس روحانيًا

وحسب، بل إنسانيًا، جزء من هذه المجموعة، وللحظة فائقة الألم سريعة، تذكّر والده، وإذا برجل ملتحٍ على وجهه من جانبي ذقنه علامتان بيضاوان، علامتان أشبه بخدش هر أو ذئب، يضع ذراعه حول سعيد ويسأله هل ترغب ببعض الشاي يا أخي.

ذاك اليوم، أحسّ سعيد أنه مقبول فعلًا في هذا المنزل، ففكّر في أن يسأل الرجل ذا اللحية بالعلامة البيضاء إن كان يمكن أن يتوفّر أي مكان له ولناديا، التي أطلق عليها صفة زوجته. فردّ الرجل أن ثمة دائمًا مكان لأخ وأخت، لكن لسوء الحظ ما من غرفة يتشاركانها، بل يمكن لسعيد أن يبقى معه ومع بعض الرجال في الطابق الأرضي في غرفة المعيشة، شرط ألّا يمانع في النوم على الأرض، وتنام ناديا في الطابق الأعلى مع النساء، فحتى هو وزوجته قد انفصلا على هذا النحو وكانا بين أول الذين أقاموا في هذا البيت، لكنها الطريقة الحضارية الوحيدة للتمكّن من حشر أكبر عدد من الناس في المنزل، وقد نجحوا في ذلك، بأحسن طريقة ممكنة.

وعندما أخبر سعيد ناديا الخبر السار لم تتصرف وكأنه خبر سار على الإطلاق.

بل قالت: «ولمَ ننتقل؟».

فأجابها سعيد: «لكي نكون بين من هم مثلنا».

«وما الذي يجعلهم مثلنا؟».

«إنهم من بلادنا».

«هم من البلاد التي كنّا منها».

وحاول سعيد ألا يبدو منزعجًا. فقال: «نعم».

«لقد غادرنا ذاك المكان».

«لكن ذلك لا يعني أننا منقطعون».

«هم ليسوا مثلي».

«لم تلتقيهم بعد».

«لا حاجة لي لفعل ذلك». وأطلقت نفسًا طويلًا متوتّرًا، مضيفة بنبرة أكثر رقة: «هنا نملك غرفة لنا، لنا وحدنا. وهذا ترف كبير. لماذا نتخلى عن ذلك وننام منفصلَيْن. بين عشرات الغرباء؟»

لم يجد سعيد إجابة على هذا السؤال المنطقي. لاحقًا، فكّر أنه من غير المنطقي فعلًا أن يتخليا عن غرفة نومهما من أجل الإقامة في مساحات منفصلة تشكل حاجزًا بينهما، كما عندما كانا يعيشان في منزل أهله، ذاك الزمان الذي يتذكّره الآن بفيض من حنان، على الرغم من الفظاعات. ذاك الحنان الذي أحسّه تجاه ناديا وأحسّته تجاهه، ذاك الإحساس الذي تبادلاه في ما مضى. لم يتوقف عند هذه النقطة، لكن عندما قرّبت ناديا وجهها منه في السرير تلك الليلة، بما يسمح لها بدغدغة شفتيه بشفتيها، لم يتمكن من كبت الرغبة الجامحة التي تملّكته لردم المسافة الصغيرة القائمة بينه وبين قبلة يطبعها على شفاهها.

كل ليلة، يمشّط سرب من الطائرات المقاتلة السماء، مذكّرًا سكان لندن المظلمة بالتفوق التكنولوجي لخصومهم،

ومستعرضًا قوة الحكومة والسكان الأصليين. وقد يلمح سعيد ونادیا عند حدود منطقتهما أحيانًا دبابات ومدرّعات ومصفوفات اتصالات وأجهزة آلية تسير أو تزحف كالحيوانات، محمّلة عتادًا للجنود أو تتدرب على فك المتفجرات أو لربما تعَدّ للقيام بمهام أخرى غير معروفة. فتدب الرعب في النفوس أكثر من الطائرات المقاتلة والدبابات، على قلّتها، لأنها توحي بفاعلية لا يمكن ردعها، وبقوة لا إنسانية، وتذكّر بذاك الخوف الذي يشعره كائن ثديي صغير أمام مفترس من فصيلة مختلفة كليًا، تمامًا مثل القوارض أمام الأفاعي.

في اجتماعات المجلس، راحت ناديا تستمع إلى الكبار في السن يتناقشون في ما يتعين القيام به ما إن تبدأ العملية. وقد اتفقوا جميعهم على أن أهم نقطة هي العمل على كبح رعونة الشباب بينهم، إذ إن المقاومة المسلحة تقود على الأرجح إلى مذبحة، ولا شكّ في أن اللاعنف هو أفضل رد بالنسبة لوضعهم، إذ يجلب العار لمهاجميهم مقارنة بحضاريّتهم. ووافقوا جميعهم على ذلك باستثناء ناديا، التي لم تكن أكيدة مما تشعر به، فقد سبق ورأت ماذا يحدث عندما يستسلم الناس، إذ إن مدينتها السابقة قد استسلمت للمسلحين، فرأت أنه يحقّ للشبّان بأسلحتهم وسكاكينهم وقبضاتهم وأسنانهم استخدام هذه الأدوات، وأن وحشية الصغار قد تشكّل بطاقة خلاصهم أمام افتراس الكبار لهم. لكن ثمة حكمة في ما يقوله الكبار أيضًا، وهكذا تملّكتها الحيرة.

وبدا سعيد حائرًا أيضًا. لكن في المنزل المجاور حيث يعيش مواطنوه، تكلّم الرجل ذو اللحية بالعلامة البيضاء عن الشهادة، ليس كأفضل محصّلة يطمح إليها المرء، بل كنهاية ممكنة لمسار لا خيار لذوي العقول المستقيمة إلا باتباعه، فراح يناصر الدعوة إلى قيام تجمّع للمهاجرين وفق مبادئ دينية، متخطّيًا الانقسامات العرقية أو اللغة أو القومية، إذ ما أهمية هذه الانقسامات الآن في عالم ملؤه الأبواب، بل إن الانقسامات الوحيدة التي تهم الآن هي بين أولئك الذين يسعون وراء حق المرور وأولئك الذين يحرمونهم منه، وفي مثل هذا العالم يتعين على ديانة المحق أن تدافع عن أولئك الذين يسعون وراء حق المرور. كان سعيد ممزّقًا لأن تلك الكلمات أثّرت فيه، فقوّت عزيمته، فهي لم تكن الكلمات البربريّة التي يستخدمها المقاتلون في بلاده، المقاتلون الذين أودوا بحياة والدته، ولربما والده الآن. لكن في الوقت عينه، يذكّره تجمّع الرجال الذين جذبتهم كلمات الرجل ذي اللحية بالعلامة البيضاء بالمقاتلين أنفسهم. وعندما فكّر بذلك، شعر بالنتانة داخله، كما لو أن الفساد ينخر فيه من الداخل.

كثُرَ تدفّق الأسلحة إلى منزل مواطنيه، مع وصول المزيد كل يوم عبر الأبواب. ورفض سعيد حمل بندقية، لكنه قبل مسدّسًا، إذ يمكنه تخبئته، ولم يقوَ في قرارة نفسه على تحديد ما إذا أخذ المسدس ليكون بمأمن من السكان الأصليين أو من النيجيريين، جيرانه. وبينما راح يخلع ملابسه تلك الليلة، لم يأتِ على ذكر

الموضوع لناديا، لكنّه لم يعمد إلى تخبئته عنها، وما إن رأى نظرتها عندما رأت المسدس حتى خالها ستتعارك معه، أو تجادله على الأقل، إذ كان على علم بما قرّره المجلس. لكنها لم تفعل.

عوضًا عن ذلك، أخذت تنظر إليه، وهو ينظر إليها، فرأى شكلها الحيواني، الغرابة في وجهها وجسدها، ورأت شكله الحيواني، وعندما اقترب منها اقتربت منه، اقتربت منه رغم ابتعادها قليلًا، وفي اقترانهما عنف وإثارة متبادلة، نوع من المفاجأة الصادمة المؤلمة.

لكن بعد أن غفت ناديا واستلقى سعيد تحت ضوء القمر الذي تسلّل إليهما من الستائر، أدرك أنه لا يملك أي فكرة حول كيفية استخدام مسدس أو المحافظة عليه، ولا أدنى فكرة، باستثناء واقع أن الضغط على الزناد يؤدي إلى إطلاق النار. وأدرك أنه سخيف بموافقته على حمله، لذا عليه إعادته في اليوم التالي.

نشطت تجارة الكهرباء في لندن المظلمة، يديرها أولئك الذين يعيشون في جيوب تنعم بالكهرباء، فتمكّن سعيد وناديا من إعادة شحن هاتفيهما من وقت إلى آخر، وإذا ما سارا على أطراف منطقتهما، بإمكانهما التقاط إشارة إرسال قوية، وهكذا تواصلا كما الآخرين مع العالم الخارجي، وبينما جلست ناديا مرة على سلالم مبنى تقرأ الأخبار على هاتفها في الشارع قبالة مفرزة من القوات العسكرية ودبابة، خالت نفسها قد رأت عبر الشبكة صورة لها تجلس على سلالم مبنى تقرأ الأخبار على

هاتفها في الشارع قبالة مفرزة من القوات العسكرية ودبابة، فتملّكها الذهول، متسائلة كيف يمكن لذلك أن يحصل، كيف يمكن لها أن تقرأ الأخبار وتكون الخبر نفسه في الوقت عينه، وكيف أمكن للصحيفة أن تنشر صورة لها على الفور، وأخذت تبحث عن مصوّر، فاعتراها شعور غريب بأن الوقت يلتوي من حولها، كما لو أنها من الماضي تقرأ عن المستقبل، أو من المستقبل تقرأ عن الماضي، وشعرت أنها لو تقف وتتوجّه إلى المنزل في تلك اللحظة فستجد ناديتين، ستنقسم إلى ناديتين، تبقى إحداها على السلالم تقرأ وتتوجّه الأخرى إلى المنزل، فتتكشّف حياتان لهاتين الروحين المختلفتين، فخالت نفسها تفقد توازنها، أو لربما عقلها، ثم قرّبت الصورة فرأت أن المرأة في الفستان الأسود التي تقرأ الأخبار على هاتفها لم تكن هي أبدًا.

حفلت الأخبار هذه الأيام بالحروب والمهاجرين والأصوليين، كما حفلت بأخبار عن التقسيم، وعن مناطق تنسلخ عن أوطانها، ومدن تنسلخ عن محيطها، فكما لو أن الجميع يتقارب في الوقت الذي يتباعد فيه الجميع. فمن دون حدود، بدت الأمم وهميّة إلى حد ما، فتساءل الناس عن الدور الذي يتعين عليهم تأديته. وبينما أكّد كثيرون أن الوحدات الصغيرة أجدى، شدّد آخرون على أن الوحدات الصغيرة تعجز عن الدفاع عن نفسها.

لدى قراءة الأخبار من وقت إلى آخر، يوشك المرء على

الاستخلاص أن الأمة مثل شخص متعدّد الشخصيات، إذ يصر البعض على الاتحاد ويؤكد آخرون على التفكك، وهذا الشخص بشخصيات متعدّدة هو شخص يبدو وكأن جلده يتحلل بينما يسبح في حساء ملؤه أناس آخرون تتحلّل جلودهم أيضًا. ولم يكن أي بريطاني بمنأى عن هذه الظاهرة، بل قال البعض إن بريطانيا قد انقسمت، كرجل قُطع رأسه لكنه ما زال واقفًا، وردّ آخرون أن بريطانيا جزيرة، والجزر تتحمّل، حتى لو تغيّر أولئك الذين يأتون إليها، هكذا كان الوضع لآلاف من السنوات مضت، وهكذا سيكون لآلاف ستأتي.

ما صدم ناديا أكثر من غيره هو ذلك الجموح الذي انطلق به السكان الأصليون مناصرين المذابح بالجملة، وقد صدمها على ما بدا من شبه شأنه شأنه جموح المقاتلين في مدينتها. فتساءلت ما إذا قامت بأي تغيير هي وسعيد عندما انتقلا، وما إذا تغيرت الوجوه والمباني، لكن الواقع الأساسي لمأزقهما ما زال قائمًا ويتكرر كما هو.

ثم رأت من حولها هؤلاء الناس كلهم، من مختلف الأعراق والألوان، يرتدون شتى أنواع الملابس، فشعرت بالارتياح وفكرت أن هنا أفضل من هناك، وخطر في بالها أنها عاشت مقيَّدة في مكان ولادتها طوال حياتها وقد ولّى ذلك الوقت وحلّ وقت جديد، وأيًا يكن، ها هي تستمتع بالريح تعصف في وجهها في يوم حار بينما تقود درّاجتها فترفع مقدمة خوذتها لتستقبل الغبار

والتلوث والبقّ الصغير الذي غالبًا ما يدخل فمك فتشمئز وحتى تبصق، لكن بعد أن تبصق تبتسم وتقهقه حرًّا طليقًا.

كانت الأبواب بمثابة تحرّر لآخرين أيضًا. ففي التلال التي تعلو تيجوانا، ميتم اسمه بكل بساطة منزل الأطفال، ربما لأنه لم يكن ميتمًا على وجه التحديد. أو لم يكن مجرّد ميتم، مع أنه هكذا كان يُعرّف من قبل طلاب الثانوية عبر الحدود الذين يأتون أحيانًا إلى هنا ليقدموا عملًا تطوّعيًا: من رسم ونجارة وتعليق لألواح الجص. لكن عددًا من الأطفال في منزل الأطفال لديه أقله فردًا واحدًا من أهله أو إخوته أو أعمامه أو عماته على قيد الحياة. وغالبًا ما يعمل هؤلاء الأقرباء من الجانب الآخر، في الولايات المتحدة، فيستمر غيابهم حتى يكبر الطفل ويصبح قادرًا بما فيه الكفاية على محاولة العبور، أو حتى يسأم القريب ويتعب فيقرر العودة. أو أحيانًا، أحيانًا كثيرة، تبدو الحياة ونهايتها صعبة التنبؤ، لاسيما عن بعد، إذ يبدو أن الموت يعمل على نحو عجيب غريب.

يقع المنزل على قمة تلة تواجه الشارع. وتحتل ساحة اللعب ذات الأسوار المسيّجة والمصنوعة أرضها جزئيًا من الخرسانة موقعًا في الخلف، وتواجه واديًا جافًا تطل عليه المساكن المنخفضة الأخرى الواقعة في هذا الشارع، ويرتفع بعضها على ركائز وكأنها تشرف على البحر، في مشهدية غير متناسقة، نظرًا للجفاف وغياب المياه في المكان. لكن المحيط الهادي لا يبعد

سوى بضع ساعات سيرًا على الأقدام إلى الغرب، وإلى جانب ذلك، تبدو الركائز منطقية نظرًا للتضاريس.

من باب أسود في حانة مجاورة، من المسلّم به أنه مكان غير مألوف لتجد امرأة شابة نفسها فيه، خرجت امرأة شابة. غير أن المالك لم يثر أي ضجة، إذ اعتاد الأمر هذه الأيام، وما إن برزت هذه المرأة الشابة حتى وقفت وسارت نحو الميتم. ركّزت نظرها على امرأة شابّة أخرى، أو بالأحرى فتاة صبية، فعانقت المرأة الشابة الفتاة، التي تعرّفت إليها بعد أن شاهدتها عبر أجهزة إلكترونية على شاشات الهواتف والكمبيوتر، إذ مضت أعوام كثيرة على فراقهما، فعانقت الفتاة أمها، ثم تملّكها الخفر.

التقت والدة الفتاة بعد ذلك بالراشدين الذين يديرون الميتم، والعديد من الأطفال الذين راحوا يحدقون فيها ويحدثونها كما لو أنها إشارة لأمر ما، وهو ما كانت عليه فعلًا، إذ بما أنها أتت، فهذا يعني أن آخرين سيأتون. تألّف العشاء هذا المساء من أرز وفاصوليا أعيد طهوها وقدمت على صحون ورقية، وتم تناولها على صف من الطاولات المرصوفة التي تحيط بها المقاعد، فجلست الأم في الوسط، كشخصية بارزة أو مقدّسة، وراحت تخبر قصصًا تخيّل بعض الأطفال، بما أنهم أطفال، حصولها لأمهاتهم الآن، أو من قبل، عندما كانت أمهاتهم على قيد الحياة.

الأم التي عادت ذاك اليوم قضت ليلتها في الميتم حتى تقوم ابنتها بوداع أصدقائها. ثم سارت الأم وابنتها معًا إلى الحانة،

فسمح لهما المالك بدخولها، مومئًا برأسه مبتسمًا، فتلوي الابتسامة شاربيه وتحوّل ملامحه الشرسة إلى بلهاء بعض الشيء للحظة، إلى أن تختفي الأم وابنتها.

في لندن، وصلت أصداء إلى سعيد ونادیا تفيد عن تعبئة ونشر التشكيلات العسكرية وشبه العسكرية في المدينة من سائر أرجاء البلاد. فتخيلا أفواجًا بريطانية تحمل أسماء قديمة وتستعد عبر معدات حديثة للقضاء على أي مقاومة قد تواجهها. وهكذا يبدو أن مجزرة كبرى تلوح في الأفق. فكلاهما يعرف أن معركة لندن ستكون من جانب واحد، فقررا كآخرين كثر عدم المخاطرة بمغادرة المنزل.

بدأت عملية تطهير غيتوات المهاجرين حيث وجد سعيد ونادیا نفسيهما في وضع سيء بعد أن أصيب رجل شرطة بقدمه بعد ثوانٍ من انتقال وحدته إلى سينما محتلة بالقرب من ماربل أرتش، ثم بدأت أصوات إطلاق النار الآتية من هناك، لكن أيضًا من كل مكان، في تزايد متواصل كانت تأتي من كل الأنحاء، فهرع سعيد الذي وجد نفسه في الخارج إلى المنزل، لكنه وجد الباب الأمامي الضخم مقفلًا بالمفتاح، فأخذ يطرق عليه طرقًا حتى فتح، وجذبته نادیا بعنف وأغلقت الباب بقوة وراءه.

ذهبا إلى غرفتهما في الخلف ودفعا بالفرشة على النافذة وجلسا معًا في زاوية ينتظران. سمعا طائرات الهليكوبتر والمزيد من إطلاق النار يترافق مع إعلانات عبر مكبرات صوت جبارة

هزّت الأرض تطالب بإخلاء المنطقة سلميًا، وشاهدا عبر فجوة بين الفرشة والنافذة آلاف المناشير تتساقط من السماء، وبعد فترة رأيا دخانًا وشمّا رائحة حريق، ثم ساد الهدوء، لكن الدخان والرائحة بقيا لفترة طويلة، وتحديدًا الرائحة، بقيت عابقة حتى مع تغيّر وجهة الرياح.

تلك الليلة سرت شائعة مفادها أن أكثر من مئتي مهاجر من أطفال ونساء ورجال، وتحديدًا الأطفال، عدد كبير من الأطفال، تم حرقهم مع احتراق دار السينما. وبغضّ النظر عما إذا كان الخبر صحيحًا أو لا، أو أن شائعات أخرى تتحدث عن سفك دماء في هايد بارك أو إيرلز كورت أو بالقرب من مستديرة شيبيرد بوش، والمهاجرون يسقطون بالمئات.. أيًا كان ما حصل، فإن أمرًا ما قد حدث، إذ سادت فترة استراحة، والجنود وضباط الشرطة والمتطوعون الذين كانوا قد تقدموا إلى أطراف الغيتو الخارجية قد تراجعوا، وتوقف إطلاق النار تلك الليلة.

وفي اليوم التالي ساد الهدوء، وفي اليوم الذي تلاه، وفي اليوم الثاني من الهدوء أزال سعيد ونادیا الفرشة عن نافذتهما وتجرآ على المغامرة خارجًا للبحث عن طعام لكنهما لم يجدا ما يمكن أكله. فالمستودعات ومطابخ الحساء قد أقفلت. وإذا كانت بعض المؤن تأتي عبر الأبواب، إلا أنها لم تكن كافية. فاجتمع المجلس وصادر جميع المؤن في المنازل الثلاثة، ثم قام بترشيد استعمالها، مخصصًا معظمها للأطفال، فحصل سعيد ونادیا على حفنة من اللوز كل يوم، وعلبة رنجة يتشاركانها لاحقًا.

جلسا على سريرهما يشاهدان المطر ويتكلّمان جريًا على عادتهما حول نهاية العالم، فتساءل سعيد عاليًا مرة أخرى، إن كان السكان الأصليون يريدون حقًا قتلهم، فكرّرت ناديا مرة أخرى أن السكان الأصليين قد تملّكهم خوف جعلهم قادرين على فعل أي شيء.

وقالت: «أفهم ذلك، تخيّل لو أنك تعيش هنا. ويصل فجأة ملايين الأشخاص من مختلف أنحاء العالم».

فردّ سعيد قائلًا: «لقد وصل الملايين إلى بلادنا، عندما اندلعت حروب مجاورة».

«الأمر مختلف. دولتنا فقيرة. لم نشعر أننا سنفقد الكثير».

في الخارج على الشرفة أخذ المطر يطقطق على الأواني والمقالي، فيقوم سعيد أو ناديا دوريًا ويفتحان النافذة ويحملان اثنين من هذه إلى الحمام يفرغانها في حوض الاستحمام الذي تم سدّه وقد اعتبره المجلس جزءًا من مخزون المياه للطوارئ، بعد أن جفت الصنابير.

راقبت ناديا سعيد وتساءلت مرة أخرى إن كانت قد ضلّلته. فكرت أنه ربما في النهاية كان يميل إلى مغادرة مدينتهم، وفكرت أنه ربما كان بإمكانها أن تقنعه في كلتي الحالتين، وفكرت أنه رجل جيد ومحترم في الأساس، فامتلأت تعاطفًا تجاهه في تلك اللحظة بينما تراقب وجهه يحدّق بالمطر، وأدركت أنها لم تحس في حياتها تجاه أيٍّ كان في العالم شعورًا بهذه القوة كما أحست

تجاه سعيد في لحظات الأشهر الأولى عندما شعرت بأقوى شعور تجاهه.

أما سعيد، فتمنى من جهته لو أمكنه القيام بأي شيء لناديا، لو أمكنه حمايتها مما سيأتي، حتى لو أدرك، إلى حد ما، أن الحب يعني الدخول في حتمية ألّا تتمكن يومًا ما من حماية ما هو الأكثر قيمة بالنسبة إليك. وفكّر أنها تستحق أفضل من ذلك، لكنه عاجز عن رؤية أي مخرج، بعد أن قررا أنهما لن يهربا، ولن يلعبا الروليت برحيل آخر. فالهروب الدائم يتخطى قدرة معظمهم: ففي مرحلة ما، حتى الطريدة ستتوقف مرهقة وتنتظر قدرها، ولو لآن.

سألته ناديا: «ما الذي تخاله يحدث عندما تموت؟»

«تعنين الحياة بعد الموت؟»

«كلا، ليس بعده. في خلاله. في اللحظة نفسها. هل تتحول الأمور إلى سواد، مثل شاشة هاتف أطفئ؟ أو تغرق في شيء غريب، في المنتصف، كما عندما تنام، فتكون هنا وهناك في آن واحد؟»

فكّر سعيد أن الأمر يتوقف على كيفية الموت. لكنه رأى ناديا تنظر إليه منتظرة إجابته فقال: «أعتقد أن الأمر يشبه النوم. تحلمين قبل أن ترحلي».

تلك كانت مجمل الحماية التي يقوى على تقديمها لها. فابتسمت له ابتسامة دافئة مشعة، وتساءل إن كانت تصدقه أو فكّرت كلا يا عزيزي، ليس هذا ما يحصل على الإطلاق.

لكن أسبوعًا مَرّ. وتلاه آخر. ثم تراجع السكان الأصليون وقواتهم.

لربما قرروا أنه ليس من شيمهم أن يقوموا بما يلزم القيام به، من قتل المهاجرين وذبحهم حيث يلزم وعلى نحو دموي، فخلصوا إلى أنه لا بد من إيجاد سبيل آخر. لربما استوعبوا أنه لا يمكن إغلاق الأبواب، وأن أبوابًا جديدة ستواصل بروزها، وفهموا أن إنكار التعايش يتطلب اختفاء أحد الجانبين من الوجود. وبينما يخضع الطرف الأقوى لعملية تحوّل، لن يتمكن أهل البلد الأصليين بعد ذلك من النظر إلى أعين أطفالهم والتكلم برؤوس مرفوعة عما فعلته أجيالهم. أو لربما أن العدد الهائل من الأماكن التي تحتوي على أبواب جعل القتال غير مجدٍ لأي من الأطراف.

وهكذا بغضّ النظر عن السبب، فازت الأخلاق في هذه المناسبة، والجرأة، إذ تتطلب الشجاعة ألّا تقاتل عندما تكون خائفًا، وعادت الكهرباء والمياه، وانطلقت المفاوضات، وانتشر الكلام. وبين أشجار الكرز في بالاس غاردن تراس احتفل سعيد ونادیا وجيرانهم، احتفلوا طويلًا حتى ساعة متأخرة من الليل.

الفصل التاسع

في فصل الصيف هذا، بدا لسعيد ونانديا وكأن الكوكب بأكمله يتحرّك، فمعظم سكان الجنوب انتقلوا إلى الشمال، لكنهم انتقلوا أيضًا إلى أماكن أخرى في الجنوب كما انتقل سكان من الشمال إلى أماكن أخرى في الشمال. وفي الحزام الأخضر المحمي سابقًا حول لندن، نشأت مدن جديدة، مدن تتّسع لعدد من الناس يفوق سكان لندن نفسها. وقد سمّي هذا التطور باسم «هالة لندن» وهي واحدة من الهالات والكواكب والأقمار البشرية العديدة التي طفت في البلاد وفي العالم.

في أحد مخيمات العمال كان سعيد ونانديا يعملان بكدّ، ووجدا نفسيهما في تلك الأشهر الأكثر دفئًا. ومقابل عملهما في تنظيف الأراضي وبناء البنى التحتية وتجميع المساكن من كتل جاهزة، وُعد المهاجران بمسكنٍ من أربعين مترًا وخط أنابيب: منزل يقع على أرض تبلغ مساحتها أربعين مترًا متصل بمرافق الحداثة كلها.

تمّ فرض ضريبة زمنية اتفق عليها على نحو متبادل، فيتم بموجبها اقتطاع جزء من المدخول من أولئك الذين وصلوا حديثًا إلى الجزيرة يذهب إلى أولئك الموجودين منذ عقود، على أن تتناقص الضريبة الزمنية في كلا الاتجاهين، لتصبح أصغر وأصغر كلما واصل المرء إقامته، وتتحول إلى معونة أكبر وأكبر في وقت لاحق. لكن الاضطرابات كانت هائلة، والنزاع لم ينتهِ بين ليلة وضحاها، بل تواصل بطيئًا، غير أن التقارير التي تفيد عن مواصلته بدت أقل ترويعًا، وبينما واصل بعض المهاجرين تمسّكهم بملكيّات لا يملكونها بموجب القانون، وواصل بعض المهاجرين وبعض السكان الأصليين أيضًا عمليات التفجير والضرب بالسكاكين أو إطلاق النار، شعر سعيد ونادیا أنه بشكل عام، بالنسبة لغالبية السكان، أقله في بريطانيا، استمرت الحياة بحد لا بأس به من الأمان.

أحيط مخيم العمال الذي يعمل فيه سعيد ونادیا بسياج. في الداخل سرادقات ضخمة من أنسجة رمادية تبدو وكأنها بلاستيكية، تدعمها أطواق حديدية تجعل كل منها يرتفع عاليًا، فتسمح بتمرير الهواء إلى الداخل وتقاوم الريح والمطر في آن.

احتل سعيد ونادیا مساحة صغيرة في تلك المهاجع وقد أحاطتها الستائر، ستائر معلقة من كابلات ترتفع عن قدرة سعيد على بلوغها، وفوقها مساحة فارغة، كما لو أن الجزء الأسفل

من السرادق عبارة عن دهليز مفتوح السقف، أو غرف عمليات مستشفى ميداني ضخم.

تناولا وجبات متواضعة، تتألف من الحبوب والخضار وبعض مشتقات الحليب، وإذا ما حالفهما الحظ، حصلا على العصائر أو القليل من اللحم. صحيح أنهما لم يشبعا نهمهما، لكنهما ناما جيدًا لأن العمل شاق ومضنٍ. وقد أصبحت أولى المساكن التي بناها عمال مخيمهم جاهزة تقريبًا، وبات دور سعيد ونانديا قريبًا تقريبًا، وبنهاية فصل الخريف، بدآ يتطلعان للانتقال إلى منزل خاص بهما. فاختفت البثور مخلّفة ندوبًا متفرّقة، ولم يعودا يعيران للمطر أي أهمية.

في إحدى الليالي، نامت ناديا على سريرهما الصغير إلى جانب سعيد، وحلمت. حلمت بفتاة ميكونوس، وحلمت أنها عادت إلى المنزل الذي سكناه عندما وصلا إلى لندن، فصعدت إلى الطابق الأعلى وعبرت الباب إلى الجزيرة اليونانية، وعندما استيقظت ناديا، وجدت نفسها تلهث، وجسدها ينبض حياةً أو قلقًا، أيًا يكن فقد تغير، إذ بدا الحلم حقيقيًا حقيقيًا، وبعد ذلك وجدت نفسها تجنح بذاكرتها إلى ميكونوس من فترة لأخرى.

ما انفك سعيد من جهته يحلم بوالده، ذلك أن قريبًا له نجح في الهروب من مدينتهم وتواصل معه سعيد عبر وسائل التواصل الاجتماعي بعد أن استقر بالقرب من بيونس أيرس، أخبره بأن والده توفي. قال هذا القريب لسعيد إن والده قد توفي بعد

إصابته بالتهاب الرئتين، وأنه عانى لأشهر، بعد أن بدأ المرض بمجرد نزلة برد لكنه ازداد سوءًا، فأسلم الروح بسبب عدم توفّر المضادات الحيوية، لكنه لم يكن وحيدًا، فقد كان أنسباؤه معه، ووري في الثرى إلى جانب زوجته، بناء على رغبته.

لم يدرِ سعيد كيف يرثيه، أو يعبّر عن ندمه وحزنه، وهو على مسافة بعيدة منه. لذا ضاعف من عمله، وأخذ ساعات إضافية حتى عندما لم تعد تساعده قواه على ذلك، لكن فترة الانتظار له ولناديا لحصولهما على منزلهما لم تقصر، ولم تزدد أيضًا، إذ إن الأزواج والزوجات والأمهات والآباء والرجال والنساء كلهم كانوا يعملون ساعات إضافية، فساهمت جهود سعيد الإضافية في المحافظة على ترتيبهما على اللائحة.

تأثرت ناديا كثيرًا بخبر وفاة الرجل العجوز. تأثرت أكثر مما توقّعت. وحاولت أن تتكلم مع سعيد عن والده، لكنها تعثرت ولم تدرِ ما تقول. بقي سعيد من جهته هادئًا، غير توّاق للكلام. وشعرت من فترة إلى أخرى بالذنب، مع أنها لم تكن أكيدة من السبب الذي يجعلها مذنبة. عندما ساورها ذلك الشعور شعرت بالراحة لأنها بعيدة عن سعيد، فقد كان كل منهما في مركز عمله، وهي راحة أحست بها لعدم وجودها معه. أحست بها من دون أن تفكر بها، لأنها عندما فكرت بذلك، لم يبقَ الذنب بمنأى عنها.

لم يطلب سعيد من ناديا أن تشاركه الصلاة على والده، وهي لم تعرض عليه ذلك، لكن عندما أخذ يجمع دائرة من معارفه

ليصلّوا بالقرب من مهجعهم مساءً، قالت إنها تود أن تلتحق بتلك الدائرة، وأن تجلس مع سعيد والآخرين، حتى لو لم تقم بالصلاة والدعاء، فابتسم وقال لا داعٍ لذلك. ولم تجد ردًا مناسبًا. لكنها بقيت في كل الأحوال، بجانب سعيد على الأرض الجرداء التي فقدت نباتها بفعل مئات آلاف الخطوات والحفر التي خلفتها عجلات الآليات الثقيلة، لتشعر للمرة الأولى أنه غير مرحّب بها. أو لربما غير معنية. أو لربما الاثنين معًا.

وجد كثيرون صعوبة في التأقلم مع هذا العالم الجديد، لكن البعض وجد في ذلك لذة غير متوقعة.

في برينسينغراخش في وسط أمستردام، خرج رجل مسنّ إلى شرفة شقته الصغيرة، وهي واحدة من عشرات المخازن السابقة والمنازل التي تعود إلى قرون ماضية والتي تم تحويلها إلى شقق. تشرف هذه الشقة على فناء غني بأشجاره المورقة كما غابة استوائية، نديّ بالخضرة، في مدينة المياه هذه، بينما نبتت الطحالب على الأطراف الخشبية لشرفته، والسراخس أيضًا، وتسلقت النباتات المعرّشة على الجانبين، وهناك وضع كرسيين، كرسيين يعودان إلى زمن مضى كان يعيش فيه شخصان في هذه الشقة، مع أنه لم يبقَ إلا واحد الآن، بعد أن تركته عشيقته الأخيرة بمرارة، فجلس على أحد الكرسيين ولف لنفسه سيجارة بعناية، وأصابعه ترتجف، والورقة تتجعد لكن بشيء من الرقة، بسبب الرطوبة، لتذكره رائحة التبغ كما دائمًا بوالده الراحل،

الذي كان يستمع معه على مسجلته إلى التسجيلات الصوتية للمغامرات الخيالية، فيحشو غليونه وينفخ به، بينما تهاجم مخلوقات البحر غواصة كبيرة، وتمتزج أصوات الريح والموج في التسجيل بأصوات المطر الذي يطرق على نافذتهما، فيفكر الرجل المسن الذي كان في حينه صبيًا، عندما أكبر سأدخن أنا أيضًا، وها هو هنا، مدخنًا لفترة من الزمن امتدت لأكثرمما تبقّى له من حياة، يوشك أن يشعل سيجارة، عندما رأى في الفناء رجلًا عجوزًا أحول يحمل عصا ويرتدي قبعة وملابس تذكّر بالمناطق الاستوائية يخرج من السقيفة المشتركة للفناء، حيث يخزن أدوات الحديقة وما شابه.

نظر الرجل المسن إلى الرجل العجوز ولم يتكلم. بالكاد أشعل سيجارته ونفث الدخان. ولم يتكلم الرجل العجوز أيضًا: بل مشى ببطء حول الفناء، متكئًا على عصاه التي أحدثت أصوات صرير على الحصاة. ثم انتقل الرجل العجوز ليدخل السقيفة مجددًا، لكن قبل أن يغادر استدار إلى الرجل المسن، الذي كان ينظر إليه بدرجة من الازدراء، وألقى عليه التحية نازعًا قبعته.

صدم الرجل المسن بتلك الحركة، فجلس جامدًا، كما لو أنه مشلول، وقبل أن يفكر في كيفية الرد، خطا الرجل العجوز خطوة إلى الأمام واختفى.

في اليوم التالي، تكرر المشهد نفسه. كان الرجل المسن يجلس على شرفته. وعاد الرجل العجوز. ونظرا إلى بعضهما

البعض. لكن هذه المرة، عندما ألقى الرجل العجوز التحية نازعًا قبعته، رد عليه الرجل المسن برفع كأسه، كأس يحتوي على النبيذ كان يحتسيه، مرفقًا حركته بإيماءة جدية محترمة من رأسه. ولم يبتسم أي من الرجلين.

في اليوم الثالث، سأل الرجل المسن الرجل العجوز إن أحب أن يشاركه الجلسة على شرفته، ومع أن الرجل المسن لا يتكلم اللغة البرتغالية البرازيلية والرجل العجوز لا يتكلم اللغة الهولندية، إلا أن كلاهما انخرط في حوار، حوار تتخلله فجوات عدة طويلة، لكن هذه الفجوات كانت مريحة، كأن لم يلحظها الرجلان، كما لا تلاحظ شجرتان هرمتان دقائق أو ساعات قليلة تمر من دون أيّ نسمة هواء.

وفي الزيارة التالية، دعا الرجل العجوز الرجل المسن أن يأتي معه عبر الباب الأسود الذي كان في داخل السقيفة.

وهكذا فعل الرجل المسن، سائرًا ببطء، كما الرجل العجوز، وفي الجانب الآخر من ذلك الباب، وجد الرجل المسن نفسه يتلقى المساعدة من الرجل العجوز ليقف على قدميه في حي سانتا تيريزا الجبلي في ريو دي جينيرو، في يوم بدا أقصر وأكثر دفئًا من اليوم الذي غادر فيه أمستردام. هناك رافقه الرجل العجوز على مسار الترام إلى الاستديو حيث يعمل، فأظهر له بعضًا من لوحاته، لكنّ فيض الإثارة نتيجة ما يجري حال دون موضوعية الرجل المسن، ومع ذلك اعتبر أن هذه الرسومات تنمّ عن موهبة

حقيقية. وسأله إن أمكنه شراء واحدة منها، فطلب منه أن يختار إحداها هدية.

بعد مضي أسبوع، كانت مصوّرة حرب تعيش في شقة في برينسينغراخش تشرف على الفناء نفسه أول جارة تلاحظ وجود هذا الثنائي الهرم على الشرفة المقابلة لها تحتها. وكانت بعد وقت ليس بالبعيد، وبما شكّل مفاجأة لها، أول شاهدة على أول قبلة لهما، وقد التقطتها من غير أن تتوقع ذلك، عبر عدسة الكاميرا، ثم محتها في وقت متأخر من تلك الليلة، في لفتة تعكس شاعرية غير معهودة واحترامًا.

أحيانًا، يأتي واحد من الصحفيين إلى مخيم سعيد ونواديا أو إلى موقع عملهما، لكن في أغلب الأحيان يقوم المقيمون أنفسهم بتوثيق ما يجري ووضعه على الشبكة الالكترونية والتعليق عليه. وكالعادة، تجتذب الكوارث أكثر الاهتمامات الخارجية، كمثل غارة يقوم بها سكان أصليون فيعطّلون الماكينات، أو يدمرون وحدات السكن التي على وشك أن تنتهي، أو يضربون بعنف بعض العمال الذين شردوا بعيدًا في المخيم. أو أحيانًا يقوم مهاجر بضرب رئيس عمال من السكان الأصليين بسكين، أو ينشب عراك بين مجموعات متناحرة من المهاجرين. لكن في أغلب الأحيان، يقلّ ما يمكن نقله، مجرد يوميات أعداد كبيرة من الناس الذين يعملون ويعيشون ويشيخون ويقعون في الغرام وينهون علاقات،

كما هي الحال أينما كان، فلا تستحق نشرها عنوانًا عريضًا، أو لا تتعدى أهميتها محيط من هم معنيون بها مباشرة.

لم يعش أي من السكان الأصليين في المهاجع، وذلك لأسباب لا تخفى على أحد. لكنهم عملوا إلى جانب المهاجرين في مواقع العمل، كمشرفين عليهم أو مشغّلين لمعدات ثقيلة، أو آليات عملاقة تشبه الديناصورات الآلية، وتقوم برفع كميات ضخمة من الأتربة أو تسطّح شرائط ساخنة من الأرصفة أو الخرسانة كما لو أنها بقرة تمضغ علفها بسكينة. وقد سبق لسعيد أن شاهد بطبيعة الحال معدات بناء من قبل، لكن ما رآه الآن حوّل كل تجربة سابقة له إلى مقزّمة، وفي كل الأحوال، فإن العمل بالقرب من معدات بناء شامخة تشخر لا يشبه مجرد النظر إليها عن بعد، كما هي الحال بالنسبة إلى رجل مشاة، إذ يختلف الأمر الاختلاف كله بين تجربة السير جنبًا إلى جنب مع دبابة في معركة ومشاهدة الطفل واحدة من الدبابات في عرض عسكري.

عمل سعيد مع طاقم على الطريق. كان مسؤوله رجلًا من السكان الأصليين يتمتع بالمعرفة والخبرة اللازمتين، ويسرّح بضعة خصلات بيض من الشعر تتدلى على فروة رأس شبه صلعاء تغطيها خوذته إلا إذا أراد مسح العرق في نهاية يوم عمل. كان مسؤول العمال عادلًا وقويًا وله ملامح صارمة جادة. لم يتبادل الكثير من الكلام مع العمال لكنه بعكس كثيرين من السكان الأصليين، تناول غداءه مع المهاجرين الذين يعملون

تحت إشرافه، وبدا أنه يحب سعيد، أو بالأحرى إن كانت كلمة حب قوية بعض الشيء، بدا على الأقل أنه يقدّر تفاني سعيد في العمل، وغالبًا ما جلس بالقرب من سعيد بينما يأكل. وكان سعيد يتمتع بميزة إضافية بين العمال إذ كان يتكلم الإنجليزية، لذا احتل مرتبة وسطى بين مسؤول العمال والآخرين في الفريق.

كان الفريق فريقًا ضخمًا، يمتاز بكثرة كبيرة من الأجساد القوية مقابل نقص في المعدات، فعمد مسؤول العمال إلى وضع أساليب العمل المختلفة وتغييرها باستمرار من أجل استخدام هذا القدر الضخم من العمال بفاعلية. وشعر على نحو ما أنه عالق ما بين الماضي والمستقبل، ذاك الماضي عندما بدأ مهنته فمالت دفة مهامه نحو العمالة اليدوية، وذينك المستقبل، إذ عندما ينظر من حوله الآن إلى ما يقومون به وما لا يمكن تخيل حجمه، يشعر أنهم يعيدون رسم الكرة الأرضية بحد ذاتها.

أعجب سعيد بمسؤول عمله، ولا سيما تلك الكاريزما الهادئة التي غالبًا ما تجعل المرء ينجذب نحوها، خاصة وأن هذا الذي يتحدّر من السكان الأصليين لا يبدو مهتمًا البتة بجذب الإعجاب من حوله. وبالنسبة لسعيد ولآخرين من الفريق، فقد كانت علاقتهم مع مسؤول العمال الأقرب والأوثق بين العلاقات مع أي من السكان الأصليين، لذا أخذوا ينظرون إليه وكأنه المفتاح لفهم منازلهم الجديدة وسكانها وعاداتها وتقاليدها، وهو ما كانه فعلًا، مع أن وجودهم هنا يعني أن السكان والعادات والتقاليد تخضع لتغييرات ملحوظة.

مرة، وبينما أوشك المساء على الحلول وانتهى العمل لهذا اليوم، ذهب سعيد إلى مسؤول العمال وشكره على كل ما يفعله للمهاجرين. لم يقل مسؤول العمال شيئًا. وفي تلك اللحظة، تذكّر سعيد أولئك الجنود الذين رآهم في المدينة التي ولد فيها، يعودون من ساحة المعركة في إجازة، وعندما تلاحقهم طالبًا الاستماع إلى قصص عن المكان الذي أتوا منه وماذا فعلوا، ينظرون إليك كما لو أنك لا تدري شيئًا عمّا تسأل عنه.

استيقظ سعيد قبل الفجر في اليوم التالي، وجسده مشدود متصلّب. حاول ألّا يتحرك، من أجل ناديا، لكنه فتح عينيه ولاحظ أنها مستيقظة. فكانت ردة فعله الأولى أن يدّعي أنه لا يزال نائمًا- إذ كان مرهقًا، وبإمكانه قضاء بعض الوقت الإضافي في السرير بلا أي إزعاج- لكن فكرة استلقائها هنا وشعورها بالوحدة لم تبدُ فكرة سارة، كما أنها يمكن أن تكون قد لاحظت حيلته. فاستدار إليها وسألها همسًا: «هل تودين الخروج؟»

وافقت من دون أن تنظر إليه، فانتفض كل منهما وجلسا متكئين بظهرَيهما الواحد يسند الآخر، من جانبي السرير الصغير، يبحثان في العتمة بقدميهما عن حذاء العمل. أحدث الرباط صوتًا خشنًا بينما يعقدانه. بإمكانهما أن يسمعا تنفسًا وسعالًا وطفلًا يبكي وصوتًا مكتومًا لجماع صامت. تشبه إنارة السرادق ليلًا إنارة قمر هلال: خافت بما يكفي للسماح بالنوم، لكنه يسمح أيضًا برؤية الأشكال، من غير ألوان.

نحجا في إيجاد ممر لهما إلى الخارج. كانت السماء قد بدأت تغيّر لونها، لتنكشح ظلمتها وتتحول إلى نيلية، بينما تشتت أناس آخرون من حولهم، أزواج ومجموعات، لكن بمعظمهم هيئات وحيدة لم تقوَ على النوم أو أقله لا تقوى على النوم أكثر. وفي ظل جوٍ منعشٍ من غير أن يكون باردًا، جلست ناديا وسعيد جنبًا إلى جنب ولم يتشابكا بأيديهما بل شعرا بالضغط الرقيق الذي يمارسه تلامس ذراعيهما تحت أكمامهما.

قالت ناديا: «أنا متعبة كثيرًا هذا الصباح».

فرد سعيد: «أعرف ذلك وأنا أيضًا».

أرادت ناديا أن تقول لسعيد أكثر من ذلك، لكن في تلك اللحظة، تحوّل حلقها جافًا مؤلمًا وما كانت تبغي قوله لم يجد سبيلًا له إلى لسانها وشفاهها.

راودت الأفكار أيضًا سعيد. وهو يعلم أنه يستطيع أن يتكلم مع ناديا الآن. يعلم أنه عليه أن يتكلم مع ناديا الآن، إذ لديهما متسع من الوقت وليس ثمة ما يشتت ذهنهما. لكن لم يقوَ مثلها على حمل نفسه على الكلام.

عوضًا عن ذلك، أخذا يمشيان، بعد أن قام سعيد بالخطوة الأولى، تبعته ناديا، إلى أن سارا جنبًا إلى جنب، بانتظام، ويدرك من يراهما ماذا تبدو عليه مشية عمال، وليس مشية ثنائي يتنزه. كان المخيّم مقفرًا في تلك الساعة، لكن الطيور تحوم من جهة إلى أخرى، عدد كبير من الطيور، تطير أو تحط فوق السرداق

والسور المحيط به. نظرت ناديا وسعيد إلى هذه الطيور التي افتقدت لأشجارها أو سرعان ما ستفتقدها أكثر لتحل محلها المباني، وراح سعيد يناديها أحيانًا بصفرة خفيفة خافتة، كبالون يفرغ من هوائه بطيئًا.

وراحت ناديا تنظر لترى ما إذا لاحظ أي من الطيور نداءه، لكنها لم ترَ في مشيتهما أيًا منها يغير مسار طيرانه.

عملت ناديا ضمن فريق مؤلف بمعظمه من النساء مختص بوضع الأنابيب والبكرات الضخمة والمنصات من مختلف الألوان، من البرتقالي إلى الأصفر والأسود والأخضر. وعبر هذه الأنابيب ستنبض الحياة آذنة بأفكار جديدة في هذه المدينة الجديدة، كل ما يصل العالم ببعضهم البعض من غير أن يتحرّكوا. وتسبق طبقات الأنابيب آلة حفر، تشبه العنكبوت الذئبية أو فرس النبي لها قاعدة كبيرة إضافة إلى زوج ملاحق مرعبة من الأمام، تجتمع معًا في مكشطة حيث يفترض أن تكون فوهتها. وتعمل هذه الآلة على حفر الخنادق في الأرض لتنتشر فيها طبقات الأنابيب وتتّصل في ما بينها.

كان سائق آلة الحفر رجلًا من السكان الأصليين متزوجًا بامرأة من غير السكان الأصليين، لكنها بدت كواحدة منهم بالنسبة لناديا، غير أنها وصلت من دولة مجاورة قبل حوالي العقدين من الزمن، وقد حافظت على ما يبدو على القليل من لهجة أجدادها، لكن السكان الأصليين لديهم عدد كبير من اللهجات المختلفة،

بحيث لم تعد ناديا قادرة على التمييز. عملت هذه المرأة في الجوار مشرفة على إحدى وحدات إعداد الطعام، وكانت تأتي إلى موقع عمل ناديا في فترات الغداء عندما يكون زوجها متواجدًا، فهو لم يكن يتواجد دائمًا، لأنه يحفر الخنادق لعدد من فرق العمل، ثم تخرِج المرأة وزوجها لفافات السندويشات من أوراقها وتفتح إبريق القهوة أو الشاي الساخن فيأكلان ويدردشان ويضحكان.

ومع مرور الوقت، بدأت ناديا وبعض النساء الأخريات ضمن فريق العمل يلتحقن بهما، إذ رحّبا بوجودهن. وتبيّن أن السائق ثرثار يستمتع بإخبار النكات، ويروق له شد الأنظار إليه. ويبدو أن زوجته يروق لها ذلك أيضًا، مع أنها قليلة الكلام، لكنها بدت وكأنها تستمتع بأولئك النساء اللواتي يستمعن بذهول إلى زوجها. لربما جعله ذلك يكبر في عينيها. فراحت ناديا التي راقبت وابتسمت وقالت القليل عادة في مثل هذه اللقاءات، تتخيل الثنائي كما الملكة والملك على مملكة لا تسكنها سوى النساء، مقرّ عابر لا يدوم إلا مواسم قصيرة قليلة، وتساءلت ما إذا أحسّا الأمر نفسه فقررا مع ذلك أن يتلذذا به.

قيل إنه مع بدء كل شهر، تزداد مخيمات العمال حول لندن، ولم يتأكد سعيد وناديا إن كان هذا صحيحًا، إنما لاحظا انتفاخًا شبه يومي لمخيمهما بالوافدين الجدد. بعضهم وصل على الأقدام، فيما جاء آخرون بالحافلات أو عربات النقل. وفي

أيام عطلهم، يتم تشجيع العمال على المساعدة في كافة أرجاء المخيم، وغالبًا ما تطوع سعيد للمساعدة في معالجة الإضافات الجديدة.

تولى مرة أمر عائلة صغيرة مؤلفة من أم وأب وابنة، ثلاثة أشخاص من ذوي السحنة الفاتحة حتى ليبدو أنهم لم يتعرضوا للشمس يومًا في حياتهم. تفاجأ برموشهم التي امتصت الضوء على نحو غريب، وبأيديهم ووجناتهم التي تسهل رؤية شبكات العروق الرفيعة فيها. فتساءل من أين أتوا، لكنه لا يتكلّم لغتهم ولا يتكلّمون الإنجليزية، ولم يسعَ للتطفل.

كانت الأم طويلة نحيلة المنكبين، تقارب بطولها طول الأب. أما البنت، فكانت نسخة مصغّرة عن أمها، تقارب بطولها سعيد، مع أنه شكّك في أنها لا تزال صغيرة، لم تتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها. نظروا إليه بتشكيك ويأس، بينما سعى سعيد للتكلم برفق وعلى مهل، كما يفعل المرء عندما يقابل حصانًا حرونًا أو جروًا للمرة الأولى.

وخلال فترة بعد الظهر التي قضاها معهم، لم يسمعهم سعيد يكلّمون بعضهم البعض إلا نادرًا بلغة خالها لغتهم الغريبة. بل راحوا يتواصلون في أغلب الأحيان عبر الحركات أو بواسطة أعينهم. ففكر سعيد بداية أنهم لربما يخشون من أن يفهم لغتهم. لاحقًا فكر بأمر آخر. هم يشعرون بالخجل، ولا يعرفون بعد أن الخجل بالنسبة للنازحين شعور طبيعي، لذا لا خجل في الشعور بالخجل.

أخذهم إلى المساحة المخصصة لهم في إحدى السرادقات الجديدة الشاغرة والمزودة بالأساسيات، من سرير صغير وبعض رفوف النسيج المتدلّية من أحد الكابلات، وتركهم يستقرون، وكانوا ثلاثتهم يحدقون بلا حركة. لكنه عندما عاد بعد ساعة ليرافقهم إلى خيمة الغداء، ناداهم، فدفعت الأم بالمصراع الذي يشكّل بابهم الأمامي، فألقى بنظرة خاطفة إلى الداخل وما رآه كان بيتًا، بيتًا برفوف ملأى، وصرر أغراض على الأرض، وبضع منها على السرير، وعلى السرير أيضًا الابنة، وظهرها مستقيم من غير أن تستند إلى شيء، وقدماها معقودتان عند القصبتين، ليستقر فخذاها على قدميها، وفي حضنها كتاب صغير أو دفتر مذكرات، كانت في تلك اللحظة تكتب عليه بغضب، إلى أن نادتها الأم باسمها، فأغلقته، بمفتاح ترتديه بسلسلة حول عنقها، ووضعته في إحدى الكومات التي لا بد من أنها تعود إليها، وأدخلته إلى داخل الكومة حتى يختفي عن الأنظار.

لحقت بأهلها الذين أشاروا برأسهم شاكرين سعيد، فاستدار وقادهم إلى ذاك المكان، وهو مكان بات مكانهم، يجدون فيه إلى المأكل والمبيت سبيلًا.

أمسيات الصيف في الشمال لا تنتهي. وغالبًا ما خلد سعيد ونادیا للنوم قبل أن يحل الظلام، وقبل أن يناما، غالبًا ما جلسا في الخارج على الأرض مستندين بظهرَيْهما إلى المهجع، يتصفحان هاتفيهما، فيتجولان في عوالم بعيدة من غير أن يكونا معًا، مع

أنهما يبدوان معًا، وأحيانًا يرفع هو رأسه أو ترفع هي رأسها يتحسسان الريح تعصف في الحقول المتناثرة من حولهما.

عزا كل منهما غياب الحوار بينهما إلى الإرهاق، إذ مع نهاية النهار، كانا عادة متعبين بما لا يسمح لهما بالكلام، كما أن للهواتف تلك القدرة على إبعاد الفرد عن محيطه الجسدي، وقد يكون ذلك السبب جزئيًا، لكن سعيد ونادیا انقطعا عن ملامسة بعضهما البعض في السرير، ليس على هذا النحو، وليس لأن المساحة المحاطة بالستائر في السرادق بدت أقل مما يمنحهما الخصوصية، أو ليس بسبب ذلك حصرًا. وعندما يتكلمان مطوّلًا، ذلك الثنائي الذي لم يعتد يومًا على الجدال، يشرعان يتجادلان، كما لو أن أعصابهما على المحك حتى لتستدعي النقاشات المطوَّلة إحساسًا بالألم.

في كل مرة ينتقل فيها ثنائي، يبدآن، إن كان انتباههما لا يزال مشدودًا واحدهما إلى الآخر، برؤية الآخر من منظار مختلف، إذ إن الشخصيات ليست بلون واحد لا يتغير، كالأبيض أو الأزرق، بل هي شاشات مضاءة، وتعتمد الظلال التي نعكسها عليها على ما هو حولنا. وهكذا كان مع سعيد ونادیا، اللذين وجدا نفسيهما قد تغيرا بعين الآخر في هذا المكان الجديد.

بالنسبة إلى نادیا، بدا سعيد أكثر وسامة مما كان عليه في السابق، وقد ناسبه العمل الشاق والنحافة، فأعطياه هيئة تأملية، وجعلا من الناحية الصبيانية التي كانت تصبغه رجلًا بكل ما

للكلمة من معنى. ولاحظت أن النساء الأخريات ينظرن إليه من حين إلى آخر، ومع ذلك لم تشعر هي بأي تأثير تمارسه وسامته عليها، كما لو كان صخرة أو منزلًا، أو جمادًا يمكنها أن تتأمله من دون أي رغبة فعلية.

نمت عنده شعرتان أو ثلاث شعرات بيض في لحيته، شكّلت شيئًا جديدًا لهذا الصيف، واعتاد الصلاة بانتظام أكثر، كل صباح ومساء، ولربما في فترات الغداء أيضًا. وعندما تكلم، تكلّم عن التبليط والموقع على لوائح الانتظار وفي السياسة، إنما لم يأتِ على ذكر أهله، ولم يعد يذكر السفر، أو تلك الأماكن التي يمكن أن يزوراها يومًا، أو حتى النجوم.

كان ينجذب إلى أناس من بلاده، في مخيم العمل أو عبر الشبكة. وبدا لناديا أنه كلما ابتعدا عن المدينة التي ولدا فيها، في المسافة والزمن، كلما سعى لتعزيز روابطه المستمدة منها، عاقدًا حبالًا في هواء مرحلة زمنية قد ولت بالنسبة إليها بلا رجعة.

وبالنسبة إلى سعيد، بدت ناديا كما كانت عليه عندما التقيا للمرة الأولى، ما يعني فاتنة مثيرة بسحرها، وإن بدت أكثر تعبًا. لكن ما لا يفهمه إصرارها على مواصلة ارتداء الفساتين السود، وقد أزعجه الأمر، لا سيما وأنها لا تصلي، وتتفادى التكلم بلغتهم، وتتفادى أناسهم، وأحيانًا يودّ لو يصرخ في وجهها، إذًا فلتقلعيه، لكنه يجفل من عمق أعماقه، إذ يعتقد أنه يحبها، وامتعاضه هذا، عندما يغلي داخله على هذا النحو، يجعله يغضب من نفسه، من

الرجل الذي يبدو أنه يتحوّل إليه، رجل أقل رومنسية، وهو ليس من نوع الرجال الذي يعتقد أنه يتعين على المرء أن يطمح لأنه يكونه.

أراد سعيد أن يشعر تجاه ناديا بما لطالما شعره تجاه ناديا، واحتمال خسارة هذا الشعور قد زعزع ثقته، وجنح به إلى عالم يمكن للمرء أن يتوه فيه في أي مكان من غير أن يجد مراده. كان أكيدًا أنه يهتم لأمرها، ويتمنى الخير لها ويريد حمايتها. فهي خلاصة ما بقي له من عائلة مقرَّبة الآن، وهو يقدّر العائلة قبل كل شيء، وعندما ازدادت البرودة بينهما، تضاعف بؤسه، وتضاعف، حتى بات غير أكيد ما إذا قد تضافرت خسائره كلّها في جوهر الخسائر. وفي هذا الجوهر، في وسطه، وفاة والدته ووفاة والده واحتمال وفاة نفسه المثالية التي أحبت امرأته حبًا كبيرًا حتى لتحوّلت هذه الوفيات كلها إلى وفاة كبرى وحده العمل الشاق والصلاة قد يساعدانه على تحملها.

أجبر سعيد نفسه على الابتسام لناديا، أقلّه أحيانًا، وتمنى لو تشعر ببعض الحرارة والاهتمام عندما يبتسم، لكن ما شعرت به اقتصر على الأسى والإحساس بأنهما كانا أفضل من هذا، وأنه عليهما أن يجدا معًا سبيلًا خارج هذا.

وهكذا في أحد الأيام، وتحت سماء تجوبها الطائرات بدون طيار، وفي ظل شبكة غير مرئية من المراقبة التي تشع من هاتفيهما، فتسجّل وتلتقط كل شيء، عندما اقترحت أن يتركا هذا

المكان، ويتخليا عن موقعهما على لائحة انتظار المساكن، وكلّ ما بنياه هنا، ويعبرا بابًا قريبًا سمعت عنه، يقود إلى مدينة مارين، على المحيط الهادي، بالقرب من سان فرنسيسكو، لم يجادلها، وحتى لم يقاوم، كما خالته سيفعل، بل عوضًا عن ذلك، قال نعم، واجتاح الأمل كليهما، أمل بإمكان استعادة شعلة علاقتهما، وإعادة التواصل عبر علاقتهما جريًا على عادتهما منذ زمن مضى، ولتبديد ما يبدو أنه خطر محدق بعلاقتهما عبر مسافة تمتد لثلث الكوكب.

الفصل العاشر

في مارين، كلّما صعد المرء إلى أعلى التلال، كلما قلّت الخدمات، لكن المشاهد باتت أكثر سحرًا. وصلت ناديا وسعيد متأخرين نسبيًا إلى هذه المدينة الجديدة، وقد تم احتلال المنحدرات الدنيا كلها، لذا وجدا بقعة في الأعلى، تطلّ على جسر الغولدن غايت بريدج في سان فرنسيسكو والخليج كله، عندما يكون الطقس صافيًا، وتشرف على جزر تتشتّت وتعوم على بحر من السحب عندما يتسلّل الضباب.

بنيا كوخًا سقفه من المعدن المموّج وجوانبه من أقفاص التوضيب المتروكة. فهذا، كما شرح لهم جيرانهم، يقيهم خطر الزلزال: فقد ينهار خلال الهزة الأرضية، لكنه على الأرجح لن يلحق ضررًا جسيمًا بساكنيه نظرًا لوزنه الخفيف نسبيًا. كانت إشارات البيانات اللاسلكية قوية، لذا أمّنا لوحًا شمسيًا ومجموعة

بطاريات مع مأخذ للتيار، يقبل مختلف أنواع المقابس من حول العالم، بالإضافة إلى جامع لمياه الأمطار مصنوع من الأنسجة المركّبة ودلو، وأدوات جامعة للندى تدخل في زجاجات بلاستيكية كخيوط المصابيح المقلوبة، وهكذا لم تبدُ الحياة، على بدائيتها، قاسية، أو معدومة، كما كان يمكن لها أن تكون.

تحوّل الضباب من كوخهما إلى كائن حي: يتحرّك ويزداد سماكة، ثم ينزلق، قبل أن يتلاشى.، ليكشف عن اللامرئي، وما يجري في المياه والهواء، إذ لا يسع المرء فجأة أن يشعر بالحرارة والبرد والرطوبة على بشرته، بل يراها عبر المتغيرات الجوية. وخُيّل لناديا وسعيد أنهما يعيشان بمحاذاة المحيط وفي أعلى القمم في آن واحد.

الطريق إلى عمل ناديا كان يستدعي سفرها إلى الأسفل، أولًا عبر مناطق غابت عنها الأنابيب والأسلاك مثل منطقتهم، ثم عبر مناطق تم تجهيزها بشبكة كهربائية، ثم عبر مناطق تم تزويدها بالشوارع والمياه، ومن هناك تستقلّ حافلة أو شاحنة نقل إلى مكان عملها، في تعاونية غذائية في منطقة تجارية بنيت على عجل خارج سوساليتو.

تغرق مارين في فقر مدقع، ويظهر فقرها أكثركلما تمّت مقارنتها بثراء سان فرنسيسكو الفاحش. لكن مع ذلك، ساد شعور من التفاؤل رفض أن يموت كليًا في مارين، لربما لأن مارين أقل عنفًا من أغلبية الأماكن التي غادرها المقيمون فيها،

أو لربما بسبب المشاهد الخلابة وموقعها على طرف المحيط، فتشرف على أكبر محيط في العالم، أو بسبب خليط الناس فيها، ومجاورتها لعالم التكنولوجيا المذهل الذي يمتد في الأسفل إلى الخليج كإبهام تم ثنيه، لكنه عازم على ملاقاة إصبع مارين الملوي بإيماءة توحي أن الأمور كلّها ستكون على ما يرام.

في إحدى الليالي، أحضرت ناديا معها بعض الحشيشة التي أعطاها إياها زميل لها في العمل. لم تدرِ كيف سيتلقّى سعيد الموضوع، ولم يخطر ذلك ببالها إلا بينما كانت تصعد إلى المنزل. ففي المدينة التي ولدا فيها، دخّنا سجائر الحشيشة معًا بلذة، لكن مضى عام على تلك المرحلة، وقد تغيّر سعيد مذاك الحين، ولربما تغيرت هي أيضًا، وثمة مسافة نمت بينهما حالت دون اعتبار ما كان بينهما تحصيلًا حاصلًا.

ازدادت كآبة سعيد عمّا كانه في السابق، وهذا طبيعي، لكنه ازداد أيضًا هدوءًا وورعًا. وشعرت أحيانًا أن صلاته لم تكن محايدة تجاهها، بل تحمل بعضًا من الملامة، مع أنه لم يسعها أن تحدّد سبب شعورها بذلك، إذ لم يسألها يومًا أن تصلي أو وبّخها لعدم أدائها فريضة الصلاة. لكن في تفانيه هذا، تفان مبالغ به، مقابل تراجع في التفاني تجاهها.

فكرت في أن تلفّ سيجارة وتدخن الحشيشة بمفردها، من دون سعيد، بل أن تخفيها عنه. وقد فاجأها أن تفكّر بذلك، وجعلها تتساءل عن الوسائل التي تستخدمها لتضع حواجز بينها

وبينه. ولم تدرِ ما إذا كانت هذه الفجوات التي تزداد اتساعًا من صنيعها هي بشكل خاص، لكنها أدركت أنها ما زالت تكنّ له الحنان، لذلك أحضرت الحشيشة إلى المنزل، وانتظرت حتى تجلس بالقرب منه على مقعد السيارة الذي قايضاه واستخدماه حاليًا ككنبة، لتدرك بنتيجة توتّرها، أن الطريقة التي سيردّ فيها في هذه اللحظة على الحشيشة ترتدي أهمية قصوى بالنسبة إليها.

لامست قدمها وذراعها قدم سعيد وذراعه، فبدا دافئًا عبر ملابسه، وجلس على نحو يوحي بالإرهاق. لكنه مع ذلك، نجح في رسم ابتسامة متعبة على وجهه، وهو أمر مشجّع، وعندما فتحت قبضتها لتكشف ما بداخلها، كما فعلت مرة على سطحها منذ فترة وجيزة سابقة من حياتهما، وعندما رأى الحشيشة، بدأ يضحك، ضحكة كأنما لا صوت لها، أقرب منها إلى الهمهمة الرقيقة، قبل أن يقول، وصوته ينحلّ كزفرة بطيئة تعبق برائحة المارجوانا: «مذهل».

لفّ سعيد السيجارة لكليهما، وناديا بالكاد تحتوي ابتهاجها، وتتوق لمعانقته إنما تمتنع عن ذلك. أشعلها ودخّناها، لتحترق رئتيهما، وأول ما صدمها أن هذه الحشيشة أكثر قوة من الحشيشة في بلادهما، فأربكها تأثيرها عليها، حتى لشعرت أنها ستصاب بالجنون، ووجدت صعوبة في الكلام.

جلسا لبرهة من الزمن صامتين، والحرارة في الخارج إلى انخفاض. جلب سعيد بطانية والتحفا بها. ثم بدآ يضحكان

من غير أن ينظرا إلى بعضهما البعض، وراحت ناديا تضحك وتضحك حتى بكت.

لا سكان أصليين تقريبًا في مارين، بعد أن قضي عليهم أو أبيدوا منذ زمن طويل، ولا يراهم المرء سوى نادرًا، في محال تجارية مرتجلة، أو لربما أكثر، لكنهم يتدثرون بملابس ويعتمدون سلوكيات لا تفرقهم عن غيرهم. يبيعون في المحال التجارية حلى فضية جميلة وملابس جلدية ناعمة وأنسجة ملوّنة، ويبدو كبار السن منهم مسكونين بصبر لا حدود له يقابله أسى لا حدود له. في هذه الأماكن تُقص روايات يجتمع الناس من كل حدب وصوب للاستماع إليها، إذ إن روايات هؤلاء السكان الأصليين بدت مناسبة في هذا الوقت من أوقات الهجرة، لتمنح المستمعين الدعم الذي يحتاجون إليه.

ومع ذلك، ليس صحيحًا القول إن لا سكان أصليين على الإطلاق، إذ إن مفهوم السكان الأصليين مفهوم نسبي، فيعتبر كثيرون أنفسهم أصليين في هذه البلاد، ويعنون بذلك أنهم، أو أهلهم أو أجدادهم أو أسلافهم، قد ولدوا في هذا الشريط من الأرض الممتدة من منتصف شمال المحيط الهادي إلى منتصف شمال المحيط الأطلسي، وأن وجودهم هنا لا يعود إلى أي هجرة جسدية حصلت في حياتهم. بدا لسعيد وكأن أولئك الذين يتبنّون هذا الموقف بشراسة، ويدّعون حقوقهم كسكان أصليين بقوة،

هم بمعظمهم من أصحاب البشرة الفاتحة ويشبهون السكان الأصليين في بريطانيا- وكما كانت الحال مع الكثير من السكان الأصليين في بريطانيا، بدا وكأن عددًا كبيرًا من هؤلاء قد أصيب بالذهول لدى معرفتهم بما يجري في بلادهم الأم، أو ما جرى في فترة قصيرة، كما بدا البعض منهم غاضبًا أيضًا.

وثمة طبقة ثالثة من السكان الأصليين تتألف من أولئك الذين يعتقد آخرون أنهم يتحدرون مباشرة، حتى في أصغر أجزاء جيناتهم، من البشر الذين أُحضروا من أفريقيا إلى هذه القارة قبل قرون مضت كعبيد. وبينما لم تكن شريحة هؤلاء السكان الأصليين شريحة كبيرة نسبة إلى الآخرين، إلا أنها ترتدي أهمية كبرى، إذ تحددت معالم المجتمع كردة فعل على تلك الشريحة، ووقعت أعمال عنف مهولة على علاقة بهذه الشريحة من السكان، ومع ذلك تحمّلت، خصبة، وكأنها طبقة تربة مهّدت الطريق لطبقات التربة المستقبلية المزروعة كلها، تلك التي انجذب إليها سعيد على وجه الخصوص، بما أنه وجد في مكان الصلاة الذي توجه إليه يوم الجمعة أن الإمام يتحدّر من هذا التقليد ويتكلّم هذا التقليد. ووجد سعيد في الأسابيع القليلة التي مضت على وجوده مع ناديا في مارين، أن كلمات هذا الرجل تنضح حكمة مهدّئة للروح.

كان الإمام أرملًا، تتحدّر زوجته من بلد سعيد، لذا كان

على علم ببعض لغة سعيد، وكانت مقاربته للدين مألوفة جزئيًا لسعيد وفي الوقت عينه جديدة أيضًا. فلم يعمد الإمام إلى العظة وحسب. بل عمل على إطعام المصلين ومنحهم ملجأ وتعليمهم اللغة الإنجليزية. وأدار منظمة صغيرة، إنما فاعلة، يعمل فيها متطوعون شبان من رجال ونساء، كلّهم من لون سعيد أو أكثر دُكنة، وسرعان ما التحق بهم سعيد، ومن بين هؤلاء الرجال والنساء الذين عمل معهم سعيد، امرأة على وجه التحديد، هي ابنة الإمام، شعرها أجعد ترفعه عاليًا على رأسها بقماشة. تلك المرأة الوحيدة، المرأة الوحيدة التي سعى سعيد على وجه الخصوص إلى تفادي الكلام معها، لأنه كلما نظر إليها أحس بضيق في صدره، فاعتراه الذنب تجاه ناديا، وفكر أنه بالنسبة إليه، هنا، ثمة إحساس حريّ به ألّا يعمد إلى استكشافه. مكتبة

لم تنظر ناديا إلى وجود تلك المرأة على أنه نوع من الابتعاد من قبل سعيد، كما قد يتوقّع المرء، بل على العكس رأت فيه تقاربًا وإنعاشًا لما بينهما. فسعيد بدا أكثر سعادة، وحرصًا على تدخين السجائر مع ناديا في نهاية اليوم، أو أقله مشاركتها بضع نفثات، إذ عملا على تعديل استهلاكهما وذلك اعترافًا منهما بقوة الحشيشة المحلية، فعاودا الكلام عن أمور بغير ذات أهمية مجددًا، وعن السفر والنجوم والغيوم والموسيقى التي يسمعانها من حولهما والآتية من أكواخ أخرى. فأحست أنها تستعيد من جديد أشلاء من سعيد القديم.

لذلك، تمنت لو بوسعها أن تعود ناديا القديمة. لكن على الرغم من استمتاعها بدردشاتهما وتحسّن الجو بينهما، إلا أنهما نادرًا ما كانا يتلامسان، ذلك أن رغبتها في أن يلمسها قد خمدت منذ وقت طويل، من غير أن تتّقد تلك الشعلة مجددًا. فبدا لناديا وكأن شيئًا داخلها قد أصبح ساكنًا. فتكلّمت معه، لكن كلماتها بقيت مكبوتة لا تتعدى أذنيها. واستلقت إلى جانب سعيد، وغفت، لكنّها لم تعد توّاقة ليديه أو شفتيه على جسدها الخامد، كما لو أن سعيد أضحى شقيقًا لها، مع أنها لم تحظَ قط بشقيق، لذلك لم تكن أكيدة مما تعنيه اللفظة على وجه التحديد.

وهذا لا يعني أن أحاسيسها الشهوانية أو التي تثيرها قد ماتت. فقد أثيرت لدى رؤية رجل وسيم مرّت أمامه بينما كانت متوجهة إلى العمل، ولدى تذكّر الموسيقيّ الذي كان عشيقها الأول ولدى التفكير بفتاة ميكونوس. وأحيانًا بينما كان سعيد خارجًا أو نائمًا، كانت تعمد إلى إمتاع نفسها، وبينما تمتّع نفسها تفكّر أكثر فأكثر بتلك الفتاة، فتاة ميكونوس، فلا تفاجئها قوة ردها.

عندما كان سعيد لا يزال طفلًا، صلى للمرة الأولى كفضول ليس إلّا. فقد رأى والدته ووالده يصليان، وشكّل ذلك الفعل بعض الغموض بالنسبة إليه. فوالدته كانت تصلي في غرفتها، لربما مرة في اليوم، إلا إذا كانت الفترة فترة دينية معيّنة، أو في حال وفاة أحد أفراد العائلة أو اعتلاله، حيث كانت تعمد إلى

الإكثار من الصلاة. أما والده، فكان يصلي تحديدًا يوم الجمعة، في الظروف الطبيعية، وبشكل متقطع خلال أيام الأسبوع. فينظر إليهما سعيد يستعدان للصلاة، ويراهما يصليان، ويرى وجهيهما بعد الصلاة، يبتسمان عادة، كما لو أزاحا حملًا عنهما، أو تحررا أو ارتاحا، فيتساءل ما الذي يجري عندما يصلي أحدهم، الأمر الذي جعله فضوليًا ليختبر ذلك بنفسه، فطلب أن يتعلم الصلاة قبل أن يفكر أهله بتعليمه، فأعطته والدته التعليمات اللازمة في أحد أيام الصيف الحارة، وهكذا بدأ الأمر بالنسبة إليه. فالصلاة ذكّرته، حتى آخر يوم من حياته، بوالدته، وبغرفة نوم أهله التي تعبق برائحة خفيفة، وبمروحة السقف التي تدور سريعًا في الحر.

وعندما شارف سعيد على دخول مرحلة المراهقة، سأله والده إن كان يحب مرافقته إلى صلاة الجمعة. وافق سعيد، ومذاك الحين، راح والد سعيد يقود سيارته إلى المنزل لاصطحاب ابنه، فيصلّي سعيد مع والده والرجال، لتتحول الصلاة بالنسبة إليه موقف رجولة. أن يكون أحد أولئك الرجال، في طقوس ترفعه إلى الرشد وإلى مفهوم الانتماء إلى نوع محدّد من الرجال، الرجال النبلاء، رجل نبيل، رجل يناصر المجتمع ويدافع عن الإيمان والدماثة والآداب، وبمعنى آخر، رجل، كوالده. فالرجال الشباب يصلّون لغايات متفرقة، بالطبع، لكن بعض الرجال الشباب يصلي لتكريم خير الرجال الذين ربّوهم، وسعيد رجل من هذا الصنف.

لدى دخوله الجامعة، كان أهل سعيد يواظبان على الصلاة أكثر مما كانا عليه سابقًا، عندما كان لا يزال صغيرًا، لربما لأنهما فقدا عددًا من أحبّتهما في ذلك العمر، أو ربما لأن طبيعة حيواتهما الزائلة قد تجلت بصورة أوضح لهما، أو ربما لأنهما كان يخشيان على ابنهما في بلاد بدت وكأنها تعبد المال أولًا وأخيرًا، أيًا كانت المساحة المعطاة لأشكال أخرى من العبادة، أو ربما بكل بساطة، لأن علاقتهما الشخصية مع الصلاة قد أصبحت أكثر عمقًا وذات مغزى أكبر مع السنوات. وعمد سعيد إلى الإكثار من الصلاة في تلك الفترة أيضًا، أقله مرة في اليوم، وكان يثمّن تلك الممارسة، وواقع أنها نوع من أنواع الرموز أو وعد قطعه والتزم به.

أما هنا، في مارين، فبات سعيد يصلي أكثر. يصلي مرات عدة في اليوم، لتكون صلاته في الأساس تعبيرًا عن الحب لما ولّى ولما قد يذهب ولما لا يمكن التعبير عن حبّه إلا على هذا النحو. فعندما يصلّي، يلمس سعيد والدَيْه اللذين لا يمكنه لمسهما بطريقة أخرى، فيلامس شعورًا يفيد بأننا كلنا أطفال نخسر أهلنا. كلنا، كل رجل وكل امرأة وكل صبي وكل فتاة، ونحن أيضًا سيخسرنا أولئك الذين سيأتون بعدنا ويحبوننا، وهذه الخسارة توحّد البشرية، توحّد كل كائن بشري مع مَنْ سبقه. إنها الطبيعة المؤقتة لوجودنا، وأسانا المشترك، والوجع الذي يحمله كل منا، ومع ذلك غالبًا ما نكابر على الاعتراف به لبعضنا البعض، ومن هذا كله، رأى سعيد أنه قد يكون من الممكن في مواجهة

شبح الموت، أن يؤمن المرء بقدرة البشرية على بناء عالم أفضل، فأخذ يصلي كمرثاة أو عزاء أو أمل، لكنه شعر أنه عاجز عن التعبير عن ذلك لناديا، وأنه لا يدري كيف يعبّر عن ذلك لناديا، ذلك الغموض الذي تربطه به الصلاة، وكم كان يهمّه أن يعبّر عنه، وقد تمكّن بطريقة ما من التعبير عنه لابنة الإمام. في أول مرة دار بينهما حوار فعلي، في حفل صغير جرى بعد العمل، وتبيّن أنه حفل استذكار لوالدتها، التي تتحدّر من بلاد سعيد. يصلّون عليها جماعيًا في كل سنة في ذكرى وفاتها. وقد قالت ابنتها، التي هي ابنة الإمام، لسعيد الذي كان واقفًا بالقرب منها، أخبرني عن بلاد والدتي، وعندما تكلّم سعيد لم يكن ينوي ذلك لكنه تكلّم عن والدته، وتكلّم لفترة طويلة من الزمن، وتكلّمت ابنة الإمام لفترة طويلة من الزمن، وعندما انتهيا من الكلام، كان الليل قد أرخى سدوله منذ وقت.

حافظ سعيد وناديا على وفائهما، وأيًا يكن الاسم الذي أطلقاه على ذاك الرابط الذي يجمعهما، إلا أن كلًا منهما كان يؤمن بضرورة حماية الآخر، لذا لم يتكلما كثيرًا عن التباعد بينهما، إذ لم يرغبا بإثارة الخوف من الفراق، بينما يشعر كلاهما بذاك الخوف، الخوف من قطع الرابط بينهما، نهاية العالم الذي بنياه معًا، عالم يرتكز على تجارب مشتركة لا يمكن لأحد آخر أن يتشاركها معهما، ولغة حميمة مشتركة هي خاصة بهما دون سواهما، وإحساس بأن ما قد يكسرانه هو حالة خاصة لا يمكن

الاستعاضة عنها بسهولة. لكن بينما شكّل الخوف جزءًا مما أبقاهما معًا في الأشهر الأولى القليلة من مكوثهما في مارين، فقد تغلّبت عليه تلك الرغبة برؤية الآخر يثبت قدميه قبل أن يتم الانفصال. وهكذا تحولت علاقتهما في نهاية المطاف على نحو أو آخر إلى علاقة أقرباء، شكّلت فيها الصداقة أقوى عناصرها، وعلى عكس الكثير من قصص العشق، انطفأت شعلتهما بهدوء، من دون أن تتسبب بمفعول عكسي، مثل الغضب، إلا نادرًا. وقد شعرا بالامتنان لذلك بعد مرور سنوات، وتساءلا إن كان ذلك يعني أنهما ارتكبا خطأً، وأنهما لو انتظرا قليلًا، لكانت علاقتهما أزهرت من جديد. وهكذا استعرضت ذكرياتهما الإمكانيات، إذ هكذا تولد بطبيعة الحال أعظم لحظات الحنين في حياتنا.

وجدت الغيرة منفذًا لها في كوخهما من حين إلى آخر، فتجادل الثنائي الذي كان في طور فكّ ثنائيته، لكنهما منحا بعضهما البعض في أغلب الأحيان المزيد من المساحة، وهي عملية بدأت منذ مدة، وإن كانت محفوفة بالحزن والتنبّه، إلا أنها كانت مريحة أيضًا، وقد ازدادت تلك الراحة امتدادًا.

شهدت العلاقة أيضًا نوعًا من التقارب، إذ إن نهاية الثنائي تشبه الموت، ومفهوم الموت، وعدم الاستمرارية، قد يذكّرنا بقيمة الأشياء، وهذا ما حصل فعلًا مع سعيد ونادیا، وعلى الرغم من أن الكلام قلّ بينهما والأفعال المشتركة تراجعت بينهما، إلا أنهما عمدا إلى رؤية بعضهما البعض أكثر، وإن بوتيرة أقل.

في إحدى الليالي، تحطمت إحدى الطائرات الصغيرة من دون طيار التي لا يتعدى حجمها حجم طائر طنان والتي تراقب حيّهم من ضمن سرب من الطائرات، واصطدمت بالرفراف البلاستيكي الشفاف الذي يشكل باب كوخهما ونافذته في آن، فجمع سعيد الهيكل المعطل وأظهره لناديا، فابتسمت قائلة إنه عليهما دفنه، فحفرا حفرة صغيرة هناك، في تربة التلة حيث سقطت، مستخدمين رفشًا، ثم قاما بتغطية ذلك القبر مجددًا وضغطا عليه، فسألت ناديا إن كان سعيد ينوي الصلاة على روح الجهاز الراحل فضحك قائلًا لربما يجدر به ذلك.

أحيانًا، يأنسان الجلوس خارج كوخهما في الهواء الطلق، حيث يمكنهما سماع أصوات المستعمرات الجديدة كلها، أصوات تبدو كالمهرجان، موسيقى وأصوات ودراجة نارية ورياح، ويتساءلان كيف كانت مارين في السابق. يقول الناس إنها كانت جميلة، لكن على نحو مغاير، وفارغة.

شتاء ذاك العام تميّز بفصل تخللّه رذاذ خريفي امتزج ببعض من ربيع، وحتى بضع أيام صيفية. وفي إحدى المرات، بينما جلسا، كان الطقس دافئًا حتى لم يحتاجا إلى ارتداء أي كنزات، فأخذا يراقبان الشمس تذوي أشعتها عبر ثغرات بانت في الغيوم المشرقة الكدرة، لتنير أجزاء من سان فرنسيسكو وأوكلاند وصولًا إلى المياه المظلمة في الخليج.

سألت ناديا، «ما هذا؟» مشيرة إلى شكل هندسي مسطّح.

فأجابها سعيد: «يطلقون عليها اسم جزيرة الكنز».

فابتسمت. « يا له من اسم مثير».

«نعم».

«تلك التي وراءه يفترض أن تسمى جزيرة الكنز. إنها أكثر غموضًا».

وافق سعيد الرأي. «وذلك الجسر، جسر الكنز».

كان أحدهم يطهو الطعام فوق النار في الخارج على مقربة منهما، وراء السلسلة التالية من الأكواخ. فأمكنهما رؤية خيط رفيع من الدخان وشمّا رائحة ما. ليست لحمًا. لربما بطاطا حلوة. أو ربما لسان الحمل.

تردّد سعيد، ثم أخذ يد ناديا بيده، فغطى كفّه مفاصلها. طوَت أصابعها ولفّت أطراف أصابعه حول أصابعها. خالت نفسها قد أحست بنبضه. جلسا هكذا لوقت طويل.

ثم قالت: «أنا جائعة».

قال: «وأنا أيضًا».

كادت تقبّله على خدّه الشائك. «حسنًا، في الأسفل يتوفر كل ما قد يرغب المرء في تناوله في العالم».

ليس بعيدًا إلى الجنوب، في بلدة بالو، تعيش امرأة عجوز

عاشت في المنزل نفسه طوال حياتها. فقد اشترى لها أهلها هذا المنزل لدى ولادتها، وتوفيت فيه والدتها عندما كانت مراهقة، ثم توفي والدها بينما كانت في العشرينات من عمرها، وانضم إليها زوجها، وترعرع ولداها في هذا المنزل، وعاشت معهما بمفردها عندما تطلّقت، ثم مع زوجها الثاني، قبل أن ينتقل ولداها إلى الجامعة من غير أن يعودا، ثم توفي زوجها الثاني قبل عامين، وطوال هذا الوقت لم تنتقل أبدًا، سافرت، نعم، لكنها لم تنتقل، ومع ذلك يبدو وكأن العالم قد انتقل، فباتت بالكاد تتعرّف إلى البلدة الموجودة خارج أسوار ملكيتها.

أصبحت المرأة العجوز امرأة غنية على الورق، إذ يساوي المنزل الآن ثروة، وولداها يضغطان عليها دومًا كي تبيعه، قائلين إنها لا تحتاج لكل هذه المساحة. لكنها طلبت منهما أن يصبرا، فالملكية ستعود إليهما عندما تموت، ولن يطول الأمر كثيرًا. قالت ذلك برفق، مشددة على كل كلمة تنطق بها، وكأنها تذكرهما كيف يحفزهما المال، المال الذي أنفقاه من غير أن يملكاه، وهذا ما لم تقم به يومًا، إذ كانت تخبئ قرشها الأبيض ليومها الأسود، ولو كان قرشًا واحدًا.

ارتادت إحدى حفيداتها جامعة قريبة، جامعة تحولت من جامعة محلية صغيرة إلى إحدى أهم الجامعات في العالم وذلك في خلال السنوات القليلة التي عاشتها المرأة العجوز. وقد تردّدت

هذه الحفيدة عليها، غالبًا، بمقدار مرة في الأسبوع. كانت الوحيدة من أنسباء المرأة العجوز التي تقوم بذلك، وكانت العجوز تعشقها، وغالبًا ما شعرت بالحيرة تجاهها: فعندما تنظر إلى حفيدتها، يتراءى لها أنها تشاهد ما قد يمكن أن تكونه لو ولدت في الصين، إذ إن ملامح الحفيدة تلك هي ملامح المرأة العجوز، ومع ذلك، بدت للمرأة العجوز، بشكل عام، بشكل أو بآخر، صينية.

ثمة طلعة تقود إلى شارع المرأة العجوز، وعندما كانت فتاة صغيرة، كانت المرأة العجوز تدفع بدرّاجتها إلى الأعلى ثم تعود أدراجها مسرعة من دون أن تدوس على العجلات، فالدراجات كانت ثقيلة في تلك الأيام ويصعب دفعها صعودًا، لا سيما عندما تكون صغيرًا، كما كانت هي. ودراجتك كبيرة، كما كانت دراجتها. أرادت أن ترى إلى أين يمكنها أن تصل من دون أن تتوقف، فتومض عند التقاطعات، مستعدة للفرملة، من غير أن تكون جاهزة بالكامل، لأن حركة المرور كانت أخف، أقله مثلما تتذكر.

كانت تربّي أسماك صغيرة في بركة معشوشبة في خلفية منزلها، أسماك اعتادت حفيدتها على تسميتها السمك الذهبي، وكانت تعرف تقريبًا اسم كل قاطن في الشارع، ومعظمهم يسكن منذ زمن طويل، إذ كانوا من كاليفورنيا القديمة، من عائلات هي عائلات كاليفورنيا، لكن مع مرور الأعوام، تغيروا بسرعة أكبر، وباتت الآن لا تعرف أحدًا، ولا ترى سببًا لبذل أي مجهود، إذ

كان الناس يشترون المنازل ويبيعونها كما لو أنهم يشترون زوج جوارب، ومع كل سنة، يغادر أحدهم المنطقة وينتقل إليها أحد جديد، والآن وقد فتحت هذه الأبواب كلها التي لا يدري أحد من أين، وصل مختلف أنواع الناس الأغراب، أناس يبدون مرتاحين في مكانهم أكثر منها، حتى المشردين الذين لا يتكلمون الإنجليزية، وقد شعروا أنهم في منزلهم ربما لأنهم أصغر سنًا، وعندما تخرج يبدو لها وكأنها هاجرت هي أيضًا، وكأن الجميع يهاجر، حتى لو بقينا في المنازل نفسها طوال حياتنا، لأنه لا يسعنا أن نغيّر ذلك.

كلّنا مهاجرون عبر الزمن.

الفصل الحادي عشر

ينزلق الناس في أرجاء العالم كلها عن أماكن كانوا فيها، عن سهول خصبة باتت تتصدّع جفافًا، عن قرى ساحلية تنوء تحت ضربات المد والجذر، عن مدن مزدحمة وساحات معارك قاتلة، وينزلقون عن أناس آخرين أيضًا، أناس أحبوهم بشكل أو بآخر، كما تنزلق ناد يا عن سعيد، وسعيد عن ناديا.

كانت ناديا أول من تطرّق إلى موضوع انتقالها إلى خارج الكوخ. قالتها بينما تتلذّذ بسيجارتها، فتنفث نفثات هزيلة، تحبسها بين رئتيها كما لو أن الفكرة التي تلفّظت بها تعطّر الجو. لم يقل سعيد شيئًا ردًا على ما تفوّهت به، بل بالكاد أخذ نفسًا من السيجارة بدوره، وحبسه داخله، لينفثه لاحقًا مع نفثها. وفي الصباح عندما استيقظت، وجدته ينظر إليها، يمسّد شعرها ويبعده عن وجهها، كما لم يفعل منذ أشهر، وقال إن كان ثمة من سيغادر المنزل الذي بنياه فلا بد من أن يكون هو. لكن بينما تفوّه بذلك شعر أنه يمثّل، أو إن لم يكن يمثل فأقله كان مربكًا غير قادر على قياس مدى صدقه. لكنّه فكّر فعلًا أنه الطرف الذي

يتعيّن عليه المغادرة، وأنه عليه أن يسدّد ثمن تقرّبه من ابنة الإمام. لذا لم تبدُ كلماته كمشهد تمثيلي، بل قيامه بمداعبة شعر ناديا، الذي بدا له في تلك اللحظة، أنه لن يُسمح له بعد اليوم بمداعبته مجددًا. وشعرت ناديا من جهتها بالراحة وبعدم الراحة في آن نتيجة هذه الحميميّة الجسدية المستجدّة بينهما، فردّت بلا، تريد هي أن تغادر إن كان ثمة من سيغادر، وقد ضبطت مثله بعضًا من اللاصدق في كلامها، لأنها كانت تدرك أن المسألة ليست من منهما يغادر، بل متى، وذلك المتى بات قريبًا.

بدأ التلف يظهر على علاقتهما، واعترف كل منهما أنه من الأفضل الانفصال الآن قبل أن يحلّ ما هو أسوأ من ذلك. لكن الأيام مرّت قبل أن يناقشا الموضوع مجددًا، وعندما فعلا، كانت ناديا قد وضّبت أغراضها في حقيبة الظهر وحقيبة صغيرة، لذا لم يكن نقاشهما حول رحيلها، كما يدّعيان، نقاشًا حول رحيلها، لكن إبحارًا عبر كلمات تعكس غير ذلك، تعكس الخوف من الآتي، وعندما أصرّ سعيد أن يحمل حقيبتها، أصرّت ألا يقوم بذلك. ولم يتعانقا أو يقبّلا بعضهما البعض، بل وقفا متواجهين عند عتبة الكوخ الذي كان كوخهما، ولم يتصافحا، بل نظرا إلى بعضهما البعض، لفترة طويلة طويلة، وقد بدت أي حركة غير ملائمة، وبصمت استدارت ناديا ورحلت بعيدًا في الرذاذ الضبابي، ووجهها الخام نديّ حيّ.

في التعاونية الغذائية حيث تعمل ناديا غرف شاغرة، غرف

تخزين في الأعلى، إلى الخلف. وقد زوّدت هذه الغرف بأسرّة صغيرة، بإمكان العمال الجيّدين في التعاونية استخدامها، والمكوث هنا، إلى ما لا نهاية على ما يبدو، شرط أن يرى زملاؤهم حاجة ملحّة في بقائهم، وأن يعمل الفرد ساعات إضافية لتغطية إشغاله المكان. وبينما شكّلت هذه الممارسة خرقًا للقوانين، إلا أن الأنظمة لم تكن سارية المفعول، حتى هنا بالقرب من سوساليتو.

كانت ناديا تدرك أن بعض العمال يمكثون في التعاونية، لكنها لم تعلم ما السياسة المتّبعة لذلك، ولم يخبرها أحد. إذ على الرغم من كونها امرأة، إلا أن التعاونية تديرها وتعمل فيها غالبية من النساء، لكن كثرًا رأوا فستانها الأسود منفرًا، أو مشجعًا على العزل، أو في أي حال من الأحوال قد يتوعّد شرًا، لذلك قلة قليلة من زملائها تقرَّبوا منها، إلى أن قدِمَ يومًا رجل شاحب البشرة تغطي الأوشام بشرته بينما كانت تعمل على الصندوق ووضع مسدسًا أمامها وقال:

«ما هذا برأيك؟ ما هذا بحق اللعنة؟»

لم تدرِ ناديا ماذا تقول، فلم تقل شيئًا، ولم تتحدَ نظراته لكن لم تحِد بنظراتها عنه. وركّزت عينيها على بقعة حول ذقنه، بينما وقفا هكذا، بصمت للحظة، قبل أن يعيد الرجل ما قاله، إنما بثبات أقل هذه المرة، ثم يغادر من دون أن يسرق التعاونية أو يصوّب على ناديا، آخذًا معه مسدّسه، ولاعنًا، وضاربًا كومة من التفاح المكوّم في طريقه.

وهكذا بدأ عدد من الأشخاص في دوامها يتكلّمون معها بوتيرة أكثر بعد ذلك، لربما لأنها لفتتهم بموقفها في مواجهة الخطر، أو ربما لأنهم أعادوا موازنة آرائهم حول من يشكّل الخطر ومن يتعرض للخطر، أو ربما لأنهم وجدوا حاليًا ما يتكلمون عنه. فشعرت أنها بدأت تنتمي، وعندما أخبرها أحدهم بخيار العيش في التعاونية، وأنها يمكنها أن تريح نفسها من فستانها إن كانت عائلتها تجبرها على ارتدائه، أو حتى، أضاف آخر سريعًا، إن كانت تسعى وراء تغيير لا أكثر. صدم ذلك الاحتمال ناديا صدمة إيجابية، كما لو أن بابًا يُفتح أمامها، باب يظهر في هذه الحالة على شكل غرفة.

إلى هذه الغرفة انتقلت ناديا عندما انفصلت عن سعيد. عبقت الغرفة برائحة البطاطا والزعتر والنعناع، بينما عبق السرير برائحة أشخاص، حتى لو كان نظيفًا إلى حدّ ما. لكنها لم تجد آلة تسجيل، وما من إمكانية للتزيين، إذ إن الغرفة لا تزال تستخدم كغرفة تخزين. لكن ناديا تذكّرت شقتها في المدينة التي ولدت فيها، تلك الشقة التي أحبتها، وتذكرت ما تكونه الحياة وحيدة. وإذ لم يجد النوم إليها سبيلًا في الليلة الأولى، ونامت قليلًا في الليلة الثانية، إلا أن نومها تحسن مع مرور الأيام، وباتت هذه الغرفة أشبه ببيتها الخاص.

يبدو أن المنطقة حول مارين تنهض بنفسها من مستنقع عميق جماعي هذه الأيام. إذ يقال إن اليأس يكمن في فشل تخيّل

مستقبل جميل مرغوب به، وليس في مارين وحسب، بل في سائر المنطقة، في منطقة الخليج، وفي عدد كبير من الأماكن الأخرى أيضًا. أماكن قريبة وأخرى بعيدة، يبدو أن نهاية العالم قد دنت ومع ذلك لم تكن بتلك السوداوية، فمع تنافر المتغيرات إلا أنّها ليست النهاية، والحياة في استمرار، وقد وجد الناس ما يفعلونه وما يكونونه وتعرّفوا إلى أناس يقضون وقتهم معهم، فبدأ مستقبل جميل مرغوب به يلوح في الأفق، مستقبل لم يكن من الممكن تخيّله سابقًا، لكن لم يعد مستحيلًا الآن، ولم تأتِ النتيجة بعيدة عن راحة منشودة.

في الواقع، شهدت المنطقة ازدهارًا عظيمًا على صعيد الإبداع، ولا سيما في الموسيقى. بعضهم أطلق على ذلك عصر الجاز الجديد، إذ يمكن للمرء أن يمشي حول مارين فيشاهد كافة أنواع التركيبات والتوليفات، من البشر مع البشر، إلى البشر مع الالكترونيات، وذوي البشرة الداكنة مع ذوي البشرة الفاتحة مع معادن لماعة ومعادن ناشفة، وموسيقى آلية وموسيقى طبيعية، حتى أناس ارتدوا أقنعة أو نأوا بأنفسهم عن الرؤية. وجمعت أنواع الموسيقى المختلفة قبائل الناس المختلفين، قبائل لم تكن موجودة في السابق، كما هي الحال دومًا، وفي إحدى هذه التجمعات، رأت ناديا رئيسة الطهاة في التعاونية، امرأة جميلة بذراعين قويين، ورأت هذه المرأة ناديا تنظر إليها فأومأت لها بدورها. لاحقًا وجدتا نفسيهما تقفان جنبًا إلى جنب تتكلمان،

قليلًا، بين الأغاني ليس إلا، لكن عندما انتهت المجموعة من الغناء لم تغادرا، بل واصلتا الاستماع والتكلم خلال غناء المجموعة التالية.

للطاهية عينان زرقاوان وكأنهما ليستا عينين آدميتين، أو ربما هي زرقة لم يسبق لناديا أن فكّرت بها كزرقة آدمية، زرقة شاحبة توحي عندما تنظر إليهما، بينما الطاهية تنظر بعيدًا، أن تلك العينين ضريرتان. لكن عندما تنظر إليها لا تشك في أنها ترى، إذ إن هذه المرأة تحدّق بقوة فائقة، وتراقب بقوة بالغة، حتى لتصيبنّك مراقبتها وكأنّها طاقة جسدية. وهكذا شعرت ناديا بالإثارة بينما وقعت نظرات المرأة عليها، ونظرت هي بدورها إليها.

كانت رئيسة الطهاة بطبيعة الحال خبيرة بالطبخ، وخلال الأسابيع والأشهر التالية عرّفت ناديا على أنواع المطابخ كلها، وعلى مطابخ جديدة ولدت حديثًا، إذ إن عددًا كبيرًا من أطعمة العالم يتدفق إلى مارين، ليتحوّل المكان إلى جنّة للتذوق، والترشيد القائم يفرض عليك أن تعيش على الدوام بعض الجوع، لذا تكون على أتم الاستعداد لتذوّق ما يقدّم إليك. ولم تتلذّذ ناديا بالتذوق في السابق كما فعلت برفقة الطاهية، التي تذكّرها قليلًا براعي بقر، والتي تمارس الحب. وقد مارسا الحب معًا، بيد ثابتة وعين ثاقبة وفم لم يقم بالكثير إنما قام بما قام به ببراعة مطلقة.

في المقابل ازداد التقارب بين سعيد وابنة الإمام. وبينما أعرب آخرون عن امتعاضهم من ذلك، إذ لم يختبر أجداد سعيد تجربة

العبودية ومفاعيلها في هذه القارة، إلا أن التأثيرات الناجمة عن كيفية مقاربة الإمام تحديدًا للدين قد خفّفت من وطأة ذلك الامتعاض. ومع الوقت فعلت الزمالة فعلها أيضًا، ولا سيما العمل الذي قام به سعيد إلى جانب المتطوعين الآخرين. ثم إن واقع أن الإمام قد تزوّج امرأة من بلاد سعيد، وأن ابنة الإمام قد ولدت لامرأة من بلاد سعيد، جعل تقارب الثنائي مقبولًا، حتى لو تسبّب ببعض الإزعاج في بعض الأوساط. وبالنسبة للثنائي حمل ذلك التقارب في طياته شرارة غرابة وعكس راحة الألفة، تلك الألفة التي يشعر بها الأزواج في بداية علاقتهما.

يذهب إليها سعيد كلّ صباح، عندما يصل إلى عمله، فيتكلّمان ويبتسمان، وقد تلمس كوعه، ويجلسان معًا في وقت الغداء الجماعي. وعند المساء، بعد الانتهاء من عمل النهار، يسيران في مارين، صعودًا ونزولًا عبر المسارات والشوارع التي تتشكّل، وقد سارا في إحدى المرات بالقرب من كوخ سعيد، فأخبرها أنه كوخه، وفي المرة التالية التي سارا بالقرب منه طلبت أن ترى داخل الكوخ، فدخلاه، وأغلقا الرفراف البلاستيكي وراءهما.

وجدت ابنة الإمام في موقف سعيد من الإيمان موقفًا أربكها، كما وجدت سعة نظرته إلى العالم والطريقة التي يتكلّم فيها عن النجوم وعن الناس في العالم، قمة في الإثارة. وهكذا وجدت ملمسه، وأحبت تقسيم وجهه، وكيف يذكّرها بوالدتها وتاليًا بطفولتها. في المقابل، وجد سعيد سهولة فائقة في التكلّم معها،

لا لأنها مستمعة جيدة ومتكلّمة جيدة، وهي فعلًا هكذا، بل لأنها تدفعه إلى الرغبة بالاستماع والتكلّم. وقد وجدها منذ البداية جذّابة بما يجعل النظر إليها مريحًا ومع أنه لم يقل لها ذلك، أو حتى لم يحفل بالتفكير به، ثمة أوجه فيها تذكّره كثيرًا بناديا.

كانت ابنة الإمام من بين قادة الحملة المحلية لحركة الاستفتاء التي سعت لإجراء اقتراع حول مسألة إنشاء جمعيّة إقليمية لمنطقة الخليج، يتم انتخاب أعضائها وفق مبدأ الصوت الواحد للشخص الواحد، بغض النظر عن أصل المرء أو فصله. لكن لم يتمّ بعد تقرير كيفية تعايش تلك الجمعية مع هيئات حكومية أخرى متواجدة. فقد تحظى بداية بسلطة معنوية لا أكثر، لكن تلك السلطة جوهريّة، إذ على عكس الهيئات الأخرى التي لم يكن فيها بعض البشر بشرًا بما يكفي لممارسة حقّهم بالاقتراع، تنطق هذه الجمعيّة الجديدة بإرادة الشعب كله بكل فئاته. وفي مواجهة تلك الإرادة، يتعزز الأمل في أن تتراجع القدرة على حرمان الشعب من العدالة الكبرى.

في أحد الأيام، أظهرت لسعيد جهازًا صغيرًا بدا له ككشتبان. وكانت فرحة جدًا فسألها عن السبب، فقالت إن ذلك قد يكون المفتاح للاستفتاء، إذ يمكنه أن يفرّق أي شخص عن آخر وأن يضمن أن لكل شخص صوت واحد، وأنه يتم تصنيعه بأعداد هائلة، بكلفة زهيدة تقارب اللاشيء، فأمسكه في راحة يده واكتشف متفاجئًا أن وزنه لا يتعدى وزن الريشة.

عندما رحلت ناديا من كوخهما، لم تتواصل هي وسعيد طوال اليوم، ولا اليوم الذي تلاه. كان أكبر انقطاع بينهما مذ غادرا المدينة التي ولدا فيها. وفي مساء يومهما الثاني منفصلين، اتّصل بها سعيد ليسأل عنها، وليتأكّد أنها في أمان، وليسمع صوتها أيضًا، والصوت الذي بلغ آذانه كان مألوفًا وغريبًا في آن، وبينما راحا يتكلّمان أراد أن يراها، لكنه قاوم ذلك، وأقفلا الخط من غير أن يتّفقا على اللقاء. واتّصلت به في المساء التالي، وكان اتّصالًا موجزًا أيضًا، وراحا بعد ذلك يراسلان بعضهما البعض أو يتكلّمان معظم الأيام، وإذ مرّت أول عطلة نهاية أسبوع لهما منفصلين، اتفقا على اللقاء في عطلة نهاية الأسبوع الثانية للتنزه بجانب المحيط، فسارا على نغمات الريح تعصف في أذنيهما والأمواج ترتطم متكسّرة والرذاذ يصلهما همسًا.

والتقيا مجددًا للتنزه في عطلة نهاية الأسبوع التالية، وفي العطلة التي تلتها، وقد اصطبغت هذه اللقاءات بالحزن، إذ كانا يفتقدان أحدهما الآخر، وكانا وحيدين وتائهين في هذا المكان الجديد. أحيانًا بعد لقائهما، تشعر ناديا بشيء في داخلها يتمزق، وأحيانًا يشعر سعيد بالأمر نفسه، ليترنّح كلاهما على شفير ارتكاب أي حركة جسدية تقرّبهما مجددًا من بعضهما البعض، إنما ينجح كلاهما في النهاية في المقاومة.

لكن طقوس لقاءاتهما الأسبوعية انقطعت، كما يحدث في مثل تلك الحالات، بفعل تطوّر بعض الانجذابات الأخرى،

انجذاب ناديا للطاهية، وانجذاب سعيد لابنة الإمام، وبفعل معارف جديدة. وإذ لاحظ كلاهما بقوة أول عطلة نهاية أسبوع فوّتاها، إلا أن الثانية مرّت مرور الكرام، والثالثة لم يلحظاها حتى، وسرعان ما اقتصرت لقاءاتهما على مرة في الشهر أو أكثر، لتمرّ أيام عدة بين رسالة أو اتصال.

استمرّا على هذه الوتيرة من الاتصال العرضي، بينما انتهى فصل الشتاء مفسحًا المجال أمام الربيع -مع أن الفصول في مارين تبدو وكأنّها لا تدوم أكثر من فترات قصيرة في اليوم، فترات زمنية تسمح للمرء بنزع سترة وارتداء كنزة- واستمرّا على هذا النحو بينما ولّى الربيع وجاء الصيف. ولم يبالِ كلّ منهما برمي نظرات خاطفة إلى حياة عشيقه السابق الجديدة عبر شبكة الانترنت، لذا أخذا يتباعدان عبر مواقع التواصل الاجتماعي أيضًا، وبينما رغبا في الاطمئنان إلى بعضهما البعض وإبقاء الآخر تحت مجهر المراقبة، إلا أن البقاء على اتصال أرهقهما، إذ أعاد إلى الذاكرة حياة لم يعيشاها، كما خفّ قلق الواحد منهما على الآخر، ذلك القلق من حاجة الآخر لأن يكون سعيدًا، إلى أن مرّ شهر بلا أي اتصال، ثم سنة، ثم حياة.

خارج مراكش، على التلال التي تشرف على منزل فاخر يعود لرجل قد سمّي في ما مضى أميرًا ولامرأة قد سمّيت في ما مضى غريبة، تقف خادمة في قرية فارغة لا تستطيع الكلام، وربّما لهذا السبب، لا تتخيّل نفسها تغادر. عملت في المنزل الكبير في

الأسفل، منزل قلّ حاليًا عدد الخدم فيه عما كان قبل عام، وقلّ عما كان قبل العام الذي سبق، بعد أن هرب الخدم تدريجًا، أو انتقلوا. لكن ليست الخادمة، التي استقلت الحافلة كلّ صباح للتوجه إلى عملها، قد بقيت على قيد الحياة بفضل راتبها.

ولم تكن الخادمة طاعنة في السن، لكن زوجها وابنتها قد رحلا، فقد غادر زوجها إلى أوروبا بعد مضي وقت قصير على زواجهما، من غير أن يعود، ومن دون أن يواصل بطبيعة الحال إرسال المال. اعتبرت والدة الخادمة أن السبب يعود إلى أنها لا تقوى على الكلام، ولأنها جعلته يتذوق ملذات الجسد، التي كان يجهلها قبل زواجهما، فزوّدته بسلاح الرجولة وجرّدها من سلاحها كامرأة. لكن والدتها كانت قاسية، ولم تفكّر الخادمة في تلك المقايضة على أنها سيئة، إذ أعطاها زوجها ابنة، وهذه الابنة قد رافقتها في رحلتها في الحياة، ومع أن ابنتها قد عبرت هي أيضًا أحد الأبواب، إلا أنها عادت لزيارتها، وفي كل مرة تعود فيها تطلب من الخادمة أن ترافقها، وترفض الخادمة، إذ كانت تحس بهشاشة الأمور، فتشعر بنفسها نبتة صغيرة نبتت على تربة مخبأة بين صخور أرض جافة عاصفة، ولم يكن مرغوبًا بها في العالم، بينما هنا هي على الأقل معروفة ومقبولة، وهذا بحد ذاته نعمة.

بلغت الخادمة سنًا توقّف فيه الرجال عن النظر إليها. ففي السابق، كان جسدها جسد امرأة، عندما كانت لا تزال فتاة،

وعندما تزوجت، ثم ازداد جسدها نضوجًا عندما أنجبت ابنتها وأرضعتها، ولطالما توقف الرجال للنظر إليها، لا إلى وجهها بل إلى هيئتها، ولطالما أزعجتها تلك النظرات، نظرًا للخطر الذي تكتنفه، ولأنها كانت تدرك كيف ستتغير تلك النظرات ما إن يكتشفون أنها بكماء، لذا استقبلت انتهاء تلك المرحلة من النظرات كنوع من الراحة لها. فالحياة لم تمنح الخادمة في الأغلب، وبشكل كلّي حتى لو لم يكن كليًا، أي مساحة تمارس فيها رفاهية الغرور، ومع ذلك، هي بشر.

لم تعلم الخادمة كم يبلغ سنّها، لكنها تعرف أنها أصغر سنًا من سيدة المنزل الذي تعمل فيه، تلك التي لا يزال شعرها أسود اللون متفحّمًا ولا تزال وقفتها منتصبة ولا تزال فساتينها مصمّمة على نحو يهدف إلى الإثارة. ولا يبدو وكأن السيدة قد تقدمت في السن طوال السنوات التي عملت خلالها الخادمة عندها. فلا أسهل عن بعد من الخلط بينها وبين امرأة شابة صغيرة، بينما تبدو الخادمة قد كبرت ضعف عمرها، لربما ضعف عمريهما، كما لو أن مهنتها تمحورت حول التقدم في السن، ومقايضة سنوات عمرها بالأوراق النقدية والطعام.

في الصيف الذي اختار فيه سعيد ونادية أن يعيش كل منهما حياة منفصلة، رجعت ابنة الخادمة للاطمئنان على الخادمة في تلك القرية التي هجرها الجميع تقريبًا، فشربتا القهوة تحت سماء المساء الصافية وأخذتا تنظران إلى الغبار المحمرّ المتصاعد في الجنوب فسألت الابنة والدتها مجددًا أن تأتي معها.

نظرت الوالدة إلى ابنتها، التي نظرت إليها وكأنها أخذت أفضل ما فيها، وأفضل ما في زوجها أيضًا، إذ بوسعها أن تراه فيها، وفي والدتها، التي تسمع صوتها آتيًا من فم ابنتها، قويًا منخفضًا، لكن ليس كلماتها، إذ لم تكن كلمات ابنتها كما كلمات والدتها، بل كانت سريعة وذكية وجديدة. وضعت الخادمة يدها على يد ابنتها ثم رفعتها إلى شفتيها وقبّلتها، لتتشبّث شفتاها لبرهة من الزمن ببشرة طفلتها، تتشبّث بها حتى بعد أن أخفضت يد ابنتها، فتغيَّر شكل الشفاه، وابتسمت الخادمة وهزّت رأسها نفياً.

وفكّرت، قد تذهب يومًا ما.

لكن ليس اليوم.

الفصل الثاني عشر

مرّ نصف قرن من الزمن، وقررت ناديا أن تعود للمرة الأولى إلى المدينة التي شهدت ولادتها، حيث انطفأت الحرائق التي كانت شاهدة على اندلاعها في فترة صباها منذ زمن، إذ تخطت حيوات المدن باستمراريتها ودوريتها حياة الشعوب التي تقطنها، ولم تكن المدينة التي وجدت نفسها فيها جنة ولا جحيمًا، بل كانت مألوفة وغير مألوفة في آن. وبينما راحت تتسكّع فيها بطيئة تستكشفها من جديد، علمت بقرب سعيد منها، وبعد أن وقفت بلا حركة لفترة ملحوظة، تواصلت معه، واتفقا على اللقاء.

التقيا في مقهى بالقرب من مبناها القديم، الذي لا يزال صامدًا، مع أن غالبية المباني الأخرى المجاورة قد تغيرت، وجلسا بالقرب من بعضهما البعض على جانبين متجاورين من طاولة مربّعة تحت السماء، ونظرا إلى بعضهما البعض، نظرات متعاطفة، إذ ألحق بهما الزمان ما يلحقه عادة بالبشر، لكنها

نظرات من نوع الاعتراف الخاص، وراحا يراقبان الشبان في هذه المدينة يعبرون أمامهما، شبان لا علم لهم كم كان الوضع سيئًا في ما مضى، باستثناء ما يدرسونه في التاريخ، الذي لربما كان وفيًا، واحتسيا قهوتهما وراحا يتكلمان.

أبحر حديثهما بين حياتين، بتفاصيل حية شدّدا عليها وأخرى استثنياها، وأدّيا رقصة معًا، إذ كانا عاشقين سابقين لم يلحقا أي أذى ببعضهما البعض مما جنّبهما الافتقاد لإيقاع مشترك بينهما، فأخذا يصغران في السن ويستمتعان باللهو بينما تتناقص القهوة في فنجانَيْهما، فقالت ناديا تخيّل كم كانت الحياة لتكون مختلفة لو وافقت على الزواج بك، وقال سعيد تخيّلي كم كانت الحياة لتكون مختلفة لو وافقت على ممارسة الجنس معك، وقالت ناديا لكننا كنّا نمارس الجنس، ففكّر سعيد ثم ابتسم وقال نعم أعتقد أننا كنا نفعل.

عبرت فوق رأسيهما أقمارصناعية مشعّة في السماء المظلمة وعادت آخر الصقور إلى أعشاشها ولم يتوقف العابرون من حولهما ليتفرجوا على تلك المرأة العجوز في فستانها الأسود أو ذلك الرجل العجوز مع لحيته النابتة.

أنهيا قهوتهما. سألت ناديا سعيد إن ذهب إلى صحارى التشيلي ورأى النجوم، وهل كانت كما تخيّلها ستكون. فأومأ برأسه وقال

إن كان لديها وقت فراغ في إحدى الأمسيات، فسيأخذها، فهو مشهد يستحق أن يراه المرء في حياته، فأطبقت عينيها وقالت إنها تتوق إلى ذلك، ونهضا من مكانهما وتعانقا وانفصلا من غير أن يعلما، في تلك اللحظة، ما إذا كان موعد ذلك المساء سيحين يومًا.

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

القائمة القصيرة لجائزة المان بوكر لعام 2017
القائمة القصيرة لجائزة نيوستادت لعام 2018
القائمة القصيرة لجائزة الكابنيجي لعام 2018
من بين أفضل 10 كتب اختارها باراك أوباما لعام 2017
أفضل كتاب لعام 2017 من المجلات التالية
Time, GQ, O The Oprah Magazine, LA Times
ضمن أفضل 10 كتب لعام 2017 في
The New Yourk Times, San Francisco Chronicle, People, and Entertainment Weekly
ضمن العشرة الأكثر مبيعاً في قوائم الغارديان، التايمز البريطانية، والنيويورك تايمز.

قصة حب فيها بصيرة، تستشف كيف يمكن للقوة أن تؤثر في شخصين عاديين وتأخذهم بعيدا عن حياتهم وبيوتهم إلى قدَرٍ مجهول في بلاد بعيدة.

وكأن محسن حميد كان على علم مسبق بما سيحدث في أمريكا والعالم، فقدم لنا خارطة طريق للمستقبل بقدر ما هي مرعبة فإنها تدعو للتفاؤل.

Ayelet Waldman, The New York Times Book Review

مؤثرة، جريئة، إنسانية إلى أبعد مدى.

Entertainment Weekly

بمقدرة أدبية يقدم لنا محسن حميد نصًّا عاطفيا وإنسانيا من أجل تصّور عالم أفضل.. الهجرة غربا ليست يوتوبيا بل هي تصوّر لمستقبل قريب، نشاهد فيه ظلال باهتة لغرباء يمكن أن نصادفهم كثيرًا في طريقنا وكل ما علينا فعله هو أن نتقدم باتجاههم ونتعرف إليهم.

Viet Thanh Nguyen, The New York Times Book Review

عبر سرد مقتصد شفاف يصف لنا حميد تجربة العيش في مدينة محاصرة. يصفها بوضوح ومباشرة وحيادية، فيرينا سهولة تحوّل حياة عادية بكل عاداتها البسيطة وروتينها الممل إلي حياة مليئة بالعدائية والعنف في وقت الحرب. ويصور لنا قدرة العنف ومكره على تغيير مجرى وخط سير الحياة اليومية.

عبر مزج الواقعي بالسريالي، واستخدام سحر الخيال خلق لنا حميد ذلك التصوّر لعالم قريب من المخاطر المتسربة من عناوين الأخبار اليومية في حياتنا.

Michiko Kakutani, New York Times

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN: 978-614-472-013-4
9 786144 720134

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس